

تركز رواية «التبر» على موضوعين أثيرين لدى إبراهيم الكوني: الخطيئة والحربة، وإن كانا لا يستغرقانها. والخطيئة هنا تتجاوز المعنى الجنسي المباشر لعلاقة الذكر بالأنثى، إنها أقرب إلى المعنى الصوفي حيث الخطيئة هي ارتهاان قلب الإنسان لعلائق الدنيا كافة: الأب، الزوجة، الولد، الصديق، الزعامة والمال... الخ.

وإذا كان «المهري الأبلق» قد وقع مريضاً وفقد بهاءه نتيجة عملية جِماع وكان لا بدَّ لشفائه واستعادته لبهائه وطهارته من التكفير عن الخطيئة عبر إخصائه، فإن «أوخيد» الملعون من أبيه وطريد القبيلة بسبب انجذابه إلى المرأة والذي حثَّ بوعده من أجلها أيضاً والذي استسلم لإغراء التبر (الشرك الأكبر وأسُّ الشر وسبب الصراع بين البشر) على يدي خصمه وعاشق زوجته «دودو» مالك التبر، كان لا بدَّ لطهارته وامتلاك حريته واعتاقه من العبودية ليس فقط اعتزاله الناس وطلاق زوجته وقتل عاشقها «دودو» والتخلي عن الولد والتبر والقبيلة، وإنما أيضاً التضحية بنفسه وقبوله مستسلماً تقطيع أوصال بدنه من قبل أعدائه محققاً بذلك وصية «الشيخ موسى»: «لا تودع قلبك في مكان غير السماء».

أخيراً، لعلَّ رواية «التبر» هي الرواية العربية الوحيدة التي يحض فيها حيوان أعجم «المهري الأبلق» على أنه بطل رئيسي لا يقل تأثيره على مسار الأحداث عن شخصيات الرواية الأخرى. وفي هذا تحدٍ لقدرات المبدع الروائي لا يخفى على القارئ.

ابراهيم الكوني



التقبر<sup>١٣</sup>



فهد

ابراهيم الكوني

التجربة

جنا

«ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة، وحادثة واحدة لهم. موت هذا كموت ذاك، ونسمة واحدة لكل، فليس للإنسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطل».

العهد القديم  
سفر الجامعة  
الإصحاح الثالث

«... في طاعة سلطان هذه المملكة بلاد مفازة النّهر، يحملون إليه التبر كل سنة، وهم كفّار همج، ولو شاء أخذهم، ولكن ملوك هذه المملكة قد جربوا أنهم ما فتح أحد منهم مدينة من مدن الذهب ونشأ بها الإسلام، ونطق بها الأذان، إلّا قلّ وجود الذهب، ثم يتلاشى حتى يعدم، ويزداد فيما يليه من بلاد الكفار».

ابن فضل الله العمري  
«مملكة مالي وما معها»

تاسيلي للنشر والاعلام

133 Makarios Avenue  
Classic House Building-Office No.4  
Tel: (357-5) 387463  
Fax: (357-5) 387464  
Limassol - Cyprus

\* المركز الرئيسي :  
المنويرة - أول نزلة اللبان - بناية عساف -  
الطابق السابع - تلفون ٨٠٦٣٥٩  
ص. ب ٦٤٩٩ - ١١٣ بيروت - لبنان



عندما تلقاه هدية من زعيم قبائل آهجار(\*)، وهو لا يزال مهرأ صغيراً، يطيب له أن يفاخر به بين أقرانه في الأمسيات المقمرة ويتلذذ بمحاورة نفسه في صورة السائل والمجيب: «هل سبق لأحدكم أن شاهد مهرياً(\*\*) أبلق؟». ويجيب نفسه: «لا». «هل سبق لأحدكم أن رأى مهرياً في رشاقتة وخفته وتناسق قوامه؟». «لا...». «هل سبق لأحدكم أن رأى مهرياً يناقسه في الكبرياء والشجاعة والوفاء؟». «لا». «هل سبق لأحدكم أن رأى غزالاً في صورة مهري؟»، «لا». «هل رأيتم أجمل وأنبل؟». «لا. لا. لا. لا. اعترفوا أنكم لم تروه ولن تروه». يقفز إلى الخلاء، ويحجل مقلداً رقص المجدوبين حتى إذا تعب، انهار على الرملة، واستلقى على ظهره، ورفع صوته بأحد تلك الألحان السحرية التي يتحصن بها الفرسان المسافرين في الغلاة كتعويذة ضد الوحشة حتى يختم مواله الحزين بالأبيات المعروفة:

أسد ينكرد أمود نكفي تيزداج.

إذ شاغت تاجنين يتجير نيمزاد(\*\*\*)

(\*) أهجار: قبائل عريقة تستوطن جنوب شرق الجزائر.

(\*\*) الإبل المهرية: تجالط نسق الخيل، منسوبة إلى قبيلة مهرة بن حيدان من اليمن.

(\*\*\*) «أسد ينكرد أمود نكفي تيزداج». إذ شاغت تاجنين يتجير نيمزاد (عندما أقبل أمود

استقبلناه بمهاري الحرب - وأعطيناه فرساناً لا يخطئون الهدف). مطلع قصيدة طويلة لتمجيد

الزعيم أمود في حملاته لصد الغزاة الفرنسيين.

وبلغ به عشقه للأبلى أن قصد شاعرة معروفة من قبائل «كيل أبادا»، وطلب منها أن تقرض قصيدة مديح للمهري، تمجد خصائله، وتنطري مواهبه أسوة بالفرسان والأبطال من المحاربين. وجلس طوال المساء يحصي لها خصائص الأبلى: «أبلى، رشيق، ممشوق القوام، نبيل، شجاع، وفي...»، ولكن الشاعرة الخبيرة قاطعته فجأة: «لا يعيب الفارس أن يعدد خصائص مهريه ويتحدث عنه كملاك، ولكن لقصائد المديح شروطاً. مهريك لم يذع صيته في معركة، ولم يشتهر في حفلات الرقص». ارتبك «أوخيد» وأخفى خجله خلف زمالته. ثم قال فجأة: «ولكنه أبلى». يكفي أنه أبلى. هل سبق لك أن رأيت مهرياً أبلى؟».

قبلها أوكل للأتباع مهمة ترويض المهري وتدريبه على الشكيمة، ولكن رأى أنه من العار أن يسند إليهم مهمة ترويضه على الرقص أيضاً.

التدريب على الرقص في حضرة الحسان مهمة الفرسان في الصحراء.

- ٢ -

قبل أن يدخل به في حرم الحلقة حرص أن يعتني له بالزينة، استعار أغلب المستلزمات. . السرج والفرش والشكيمة والجراب والزمَام وحتى السوط. لباسه القديم باهت وشاحب. أكلته الشمس ولا يصلح لتزيين مهري يتأهب للدخول في حرم الحسان ليتدرب على التمايل على أنغام الموسيقى والإيقاع.

قضى نهاراً كاملاً وهو يعد له ثياب الحلقة. السرج صنعه أمهر الحدادة في غات، والفرش كليلة مزركشة جاء بها التجار من «توات»، والشكيمة ضفرتها عجائز قبيلة إيفوغاس في غدامس، والجراب طرزته أنامل حسناوات «تامغت». أما السوط فهو قطعة نادرة، مغطاة بخيوط الجلد التي نُقِشت عليها نائمات السحرة في «كانو». ويعتقد الحكماء في القبيلة أن السوط دَسّه له الحساد من أقرانه، فلعب دوره في التخريب وترتيب الفضيحة.

دخل الساحة بعد الظهر. في السهل تحلقت النساء حول الطبول، وكون الصبية حولهن طوقاً واسعاً، واتخذ الشيوخ موقعهم على المرتفع الجنوبي، واجههم من الناحية المقابلة الرجال والشباب وهم يتوجون رؤوسهم بالعمامات الفخيمة الزرقاء، ويتهادون في خطوهم بكبرياء الطواويس. ورابطت المهاري في الأفق على جانبي العراء. صف تأهب في الغرب



والصف المقابل رابط شرقاً. كانوا يزفون مطلقاً مزواجاً من الأتباع اختار أن يتخذ خلاسية حسناء رفيقة، مقررأ أن يذوق طعم الدم الممزوج بحرارة الزنج!

بدأ الاستعراض بالتشكيلات الثنائية.

بادر فارسان رشيقتان من الجهة الغربية أولاً، فانطلق فارسان في مقابلتهما من الناحية الشرقية، وتقاطعا بجوار حلقة الرقص، وكوفشا بعاصفة من الزغاريد.

تهياً «أوخيد» للانطلاق. بجواره نألق شاب من الأتباع معمماً بـ «تجولموس» ومطوقاً بحزام جلدي بديع، يجلس في سرج منمنم مثبت على ظهر مهري رمادي أنيق. الشاب سيرافقه في مهمة العبور.

اقترب القادمان من الجانب الآخر. اقترب الشاب بمهريه حتى كاد يلتحم بالأبلق وقال:

- يحق لي اليوم أن أتناهى بمرافقتك. الأبلق مهري فريد في الصحراء.

ثم غمز بعينه المخفية في الكتان الأزرق. الملاحظة أزعجت أوخيد. لأنه لم ير صدقاً في عيني رفيقه.

انطلقا.

انطلقا متلاصقين، ثابتين، متكبرين، متناسقين، منسجمين، فعاش أوخيد في هذه المسافة القصيرة، الفاصلة بين العراء الممتد غرباً حتى حلقة الغناء في الوسط، دهرأ من السعادة. كان إقبال المهرين المتلازمين بطيئاً متوازناً، ولكنه أحس أنه يطير في القضاء على جناحين وقلبه يكاد يتفجر بالسحر والشجن والفرح الخفي. أسرته الموسيقي، فعاش رهين الرقص والوجد والشوق المجهول، وأحس أن الأبلق البهي يشاطره نفس الأحاسيس الشجية حتى بلغا الحلقة. لم يعرف كيف حدث ذلك. أفاق من

الحلم فوجد أن رفيقه قد مضى يتهادى نحو صف الفرسان، ناحية الشرق، وانحرف الأبلق يساراً، ودار حول حلقة الرقص. تضاحك الصبية، فشعر بالعار. امتدت يده إلى السوط السحري كي يحث الجمل على الانطلاق واللحاق بالرفيق. وما أن أحس الأبلق بوقع السوط على جسده حتى ركب الجنون. لم ينحرف يميناً ويلحق بقرينه، وإنما رفس حلقة الصبية وفقد وقاره تماماً. عاود يمسد فخذَه بالسوط فاشتد جنون الحيوان. اخترق حلقة النساء، وحطم طبلاً أنيقاً مغطى بجلد غزال، فتفرقت النسوة، وتوقف الغناء. علت الهرجة. شد اللجام حتى طوق رأس المهري الهائج بين ساقيه. ولكن هذا التدبير لم يوقف حركته الفوضوية في ساحة الرقص. استمر يرفس بخفيه كل شيء في طريقه ويرغي ويلوك الزمام بوحشية. ثم بدأ الزيد يتطاير على النساء في كتل متفوشة ناصعة. هرعت إليه كوكبة من الجبابرة الراجلين وحاصروه بالحبال. قاومهم أيضاً فاضطروا إلى أن يصرعوه على الأرض.

صرعوهما معاً في ساحة الرقص.

هذه ليست المرة الأولى .

سبق له أن ورطه في فضائح أفظع .

فقد تعود أن يقوم بغزواته العاطفية الليلية إلى النجوع المجاورة على ظهر الأبلق . يسرجه بعد المغيب وينطلق إلى ديار المعشوقات فيصل بعد منتصف الليل . يوثقه بالعقال في أقرب الأودية ويتسلل في الظلمات إلى خيم الحسان . يتغازل ويتسامر ويختطف القبلات حتى ينفلق أفق الصحراء عن الضوء ، فيتسلل إلى الوادي ويقفز فوق السرج وينطلق عائداً .

تكررت الغزوات حتى اكتشف أن أبلقه الرشيق قد وقع في غرام ناقة حسناء تملكها قبيلة تعودت أن تقضي الربيع في وادي «المغرغر» واعتاد هو أن يزور فاتنة من بنات تلك القبيلة النبيلة . يتركه يرتع في قاع الوادي مع الإبل ، ويذهب إلى فئاته في المضارب . ولم يغفل عن مشاعر مهريه العاطفية . فقد لاحظ هيامه بالناقة البيضاء منذ زيارته الأولى . وازداد يقيناً بعدما رأى كيف يطير الأبلق إلى «المغرغر» ويحترق شوقاً للسفر الليلي . فكان يشاكسه ويقول :

- لماذا تخبيء عني ؟ اعترف أنك تطير إلى محبوبتك ولا تطير بي إلى محبوبتي . اعترف أن لا فضل لك في العدو هذه المرة ! الأنثى هي السبب ! هي السبب دائماً ! .



فيرد عليه متمائلاً، ينثر الزبد، ويمضغ الرسن في عدوه السعيد:

- أو - ع - ع - ع . . .

فيضحك أو يخيد، ويستمر في مداعبته.

حتى جاء يوم تفتق فيه الرتم عن زهوره الشجية.

عَقْلُهُ فِي الْوَادِي، وَتَرْكُهُ يَرْتَعُ بِجَوَارِ الرِّثَمِ الْفَوَّاحِ. وَلَمْ يَكُنْ يَدْرِي أَنَّ زَهْوَرَ الرِّثَمِ هِيَ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الرَّبِيعَ حُلٌّ ضَيْفًا فِي سَهُولِ الصَّحْرَاءِ. وَإِذَا حُلَّ الرَّبِيعُ فَإِنَّ مَوْسِمَ الْخُصُوبَةِ وَالتَّنَاسُلِ يَنْتَقِلُ إِلَى الْجَمَالِ فَتَهْجِجُ وَيَرْكَبُهَا الْجَنُّ.

هذا ما حدث في ذلك اليوم.

لم يمض وقت قصير على تمتاته في أذن الفتاة حتى سمع هدير الحيوان الهائج . في البداية ظن أنه رعد بعيد ، فاستمر في ملامساته ومداعباته ، فعاد الهدير يعلن عن نفسه بجنون أعنف . قفز من الخباء وهرع إلى الوادي . هناك اشتبك الأبلق مع جمل رمادي كربه في أشرس وأنبل معركة : كانا يتقاتلان للفوز بالناقة ! تفتق الأفق عن ضوء الفجر . تبين في العتمة جراح المهري . مزقه غريمه بأنيابه في الرقبة والفك ، وأصابه في الفخذ الأيسر بجروح بليغة . ولكن الجمل البشع تلقى أيضاً الإصابات ونزف الدم . كان جسمه كله ملوثاً بالدماء .

الهرجة أيقظت الأهالي ، فاندفع الرعاة إلى الوادي مسلحين بالهراوات .  
نجحوا بعد قتال طويل في أن يفصلوا بين الخصمين .

تدفقت الشمس، فأحس أُوخيد أنه ضبط عارياً. جاء شباب القبيلة إلى الموقع فرأى في عيونهم الاستنكار. عيونهم تقول إنهم يعرفون كل شيء. قادوه إلى شيخ القبيلة. عجوز نحيل، طويل القامة، يمسك بعكاز أبيض من السدر مطوق بدوائر جلدية موسومة بنقوش دقيقة. في وجنتيه تشني غصون

عميقة، ولكن في نظريته تلوح عتوية وعافية ومرح مجهول. أمر بإعداد الشاي ودعاه إلى الجلوس على الكليم في الخيمة. قلب عكاز الصدر بين يديه، وقال بوقار:

- لا يعيب الرجل النبيل أن يعشق أو يهاجر للقاء، ولكن ما ضرنا لو عملنا بشريعة المسلمين ودخلنا البيوت من أبوابها؟

ثم ابْتَسِم وأَضَاف :

- يسرنا أن نستقبل ابن شيخ اممنا في ديارنا. فله يرجع الفضل في صد الغزاة الأعراب ووقف توغلهم في الصحراء.

فهم «أوخيد» أن الشيخ الحكيم إنما أراد أن يلين ويهذيء الشباب بحديثه عن الغزوات العاطفية وإشارته إلى دور والده في التصدي لغزاة الصحراء. شيوخ القبائل لا ينطقون بكلمة واحدة عبثاً، ويروق لهم أن يستعملوا الإشارة في لغتهم.

جاء أحد رجاله بالأبلق المشخن بالجراح. كان ملوثاً بالدم والزبد والعرق والغبار.

صاح الشيخ الحكيم في رجاله:

ما هذا يا ربّي؟ كيف لم تقولوا لي إن ضيفنا النبيل يملك مهرية بهذا الكمال؟ مهري أبلق رشيق مثل الغزال. هذه سلاله انقضت من الصحراء منذ مائة عام. فمن أين حصلت عليه بالله؟

قال أُوخَيْدٌ مُحَاوِلًا أَنْ يَسْتَرْ عَرَبِيَهُ :

- من زعيم أهجار. هدية منه عندما بلغت سن الرشد.

- آه. زعيم آهجار. ابراهيم بكدة. هذه فصيلة تليق ببطل مثله. لن يقدر

على تقديم هذه الهدية غيره. لدى القبائل العريقة دائماً مفاجآت وأسرار.

...

- عندنا يقولون إن المهري مرآة الفارس. إذا أردت أن تنظر في الفارس وتنق على خفاياه، فتفقّ فرسه، مهرية. عليك بالمهري إذا أردت أن تعرف صاحبه. الآن أستطيع أن أقول إنك شاب لا ينقصك الكمال. من يملك مهرية مثل هذا الأبلق لن يشكو من نقص القيم النبيلة. شرفت ديارنا أيها الفتى النبيل سليل النبلاء. ولكن يؤسفني أن أقول إن فرصتك في تولي القبيلة بعد أبيك ضعيفة. لدى الشيخ أبناء أخت ثلاثة حسب علمي (\*). ولكن من يدري. ربما حدثت معجزة. باب المعجزات دائماً مفتوح.

قام شاب عملاق، صارم الوجنتين، خشن اليدين، بتوزيع الدور الأول من الشاي الأخضر.

رشف الشيخ طربوش الرغبة. وضع الكوب على الأرض، وقال:

- ليسمح ضيفنا النبيل أن نكرم مهرية أيضاً. فطالما يتأفف الفارس من الدخول إلى بيوتنا من أبوابها فلا بأس أن يفعل المهري ذلك.

ابتسم، فابتسم أغلب الحاضرين. أُوخيد لم يفهم الرمز. لم يدرك تلميح الشيخ، فعاد العجوز الحكيم يعلن:

- إذا أفلت الفارس من حسان القبيلة، فلا يجب أن يفلت المهري النادر من نوق القبيلة. أنا أرى أن تستأثر نوقنا به. نريد نسلًا من السلالة المتقرضة. المهاري البلقاء في إبلنا عمل ستحسدنا عليه كل القبائل. إحياء السلالة البلقاء وحمايتها من الانقراض واجبنا. ما رأي ضيفنا؟

(\*) لدى الشيخ أبناء أخت ثلاثة: يرجع الطوارق في النسب إلى الأم. فابن الأخت هو الذي يرث وليس الابن. وهي تأثيرات المجتمعات الأمومية.

لم ينتظر رأي ضيفه. أمر بتمكين المهري من النوق، فشاهد أُوخيد في ذلك اليوم لأول مرة كيف يلقح الذكر أنثى البعير.

جاؤوا بالناقة الناصعة وأناخوها في العراء. عقلوا قوائمها الأمامية والخلفية. ثم قادوا إليها الأبلق الهائج وتكأكأوا حولهما. برك فوقها حتى خيل لـ «أُوخيد» أن ضلوع الناقة المسكينة قد تكسرت. ترغى وتستغيث وتنقياً كتل الزبد المتفوش. أعاق الذيل المهمة، فأمسك أحدهم به، ورفع به إلى أعلى. تصدعت البيوت بالعويل، فخرج الأطفال والنساء للفرجة. اصطفوا في طواير كثيفة أمام البيوت. بين الحين والآخر يضحك العجوز ويلوح بعكاز الصدر في الهواء ويردد: «إذا أفلت الفارس فلا يجب أن يفلت الأبلق».

كانت تلك عملية فظيعة. كلما تذكرها أُوخيد أحس بالغثيان والخجل.



واصل مغامراته مع النوق السارحة في مراعي الصحراء، فكلفتة الفحولة العمياء داء الجرب. عاد من إحدى الغزوات كثيباً. انطفأ بريق المرح في عينيه الكبيرتين ودلى شفته السفلى أكثر. وقف في العراء هادئاً، صامتاً، يشيع الأفق المشراقص في السنة السراب السماوية، بنظرة حزينة.

كان خجولاً.

لاحظ أوخيد كآبته، ولكنه لم يكتشف السر إلا بعد أيام. تفحص وبره البهي وهو يتزع شوك الصدر من جلده المبقع ويتفقد من القراد. في الجلدة، تحت الوبر، تمكن المرض وسكن الالتهاب. حكه بأصابعه، فتوجع المهري، وصاح من الألم. جاء بالمقص، واختار موقعاً حلق منه الوبر الكثيف. تعرى الموقع عن المرض اللثيم. اسودت الجلدة، وأكلت لحم الحيوان.

بعد أيام لاحظ أن الجرب ازداد توسعاً والتهم مواقع جديدة من جسد الأبلق. ذهب إلى حكماء القبيلة طلباً للمشورة. أجمعوا على أن الأمل ضعيف في الشفاء. إذا تمكن الجرب من البعير فلا أمل. لم يفقد الأمل. لم يتصور أن توجد قوة تخطف منه أبلقه. الخبير بداء الحيوان الأعمى هز رأسه، وأجابه على استنكاره: «اييه يا ولدي. بعد الضحك يأتي البكاء.



الفرح يعقبه الحزن، والموت يأتي في غفلة الحياة.  
لم يقتنع.

لم يخلق الأبلق للموت. تذكر كيف رعاه ورباه عندما تلقاه من الزعيم المهيب وهو لا يزال مهرأ. كان يسرق الشعير من الخباء ويطرحه في راحتي يديه ويقدمه له. مع تكرار الفعلة افتضح أمره وشكته الخادم الزنجية إلى أمه قبل أن تموت. الأم أخبرت الأب، فوبخه قائلاً: «حتى الناس محرومة من الشعير وأنت تعطيه للدابة». أجاب أباه يومها: «الأبلق». ليس دابة. الأبلق هو الأبلق. ضحك الأب الذي لا يتسم إلا نادراً، وهذذه بسبابته ربما إعجاباً بجوابه.

أكثر ما يثير سخرية الأهالي في النجع أن المهري الصغير يتجول معه بين المضارب ويقتني أثره كالكلب. يهرول وراءه حتى عندما يذهب للسهر في ليالي السمر في العراء ولا ينام إلا عندما يهجع هو للنوم. يرافقه حتى عندما يسرح في الخلاء كي يقضي حاجته. وهذا أكثر ما أضحك عليه أقرانه، ولكنه لم يهتم. يستسلم لتمسحات الجمل ومداعباته ويجيب أقرانه الحمقى: «الشيخ موسى يقول: الحيوان خير صديق. الحيوان أفضل من الإنسان. سمعته يقول ذلك». الشيخ موسى يقرأ الكتب ويتلو القرآن ويؤم الناس في الصلاة. وهو مقطوع. لا زوجة ولا أولاد ولا أقارب. يعيش متنقلاً مع القبيلة برغم أنه ليس من القبيلة. ويقال إنه جاء من غرب الصحراء. من «فاس» بلاد الفقهاء وعلماء الشريعة. الشيخ موسى هو الذي تمت له بالسراً وخلص أبلقه. قال له: «الكلام بيننا ولكن شفاء جملك في آسيار(\*)». لا تضحك علي واسمع كلامي. إذهب إلى قرعات ميمون

(\*) آسيار: يعتقد أنه بقايا السلفيوم. وهو نبات أسطوري يعطي طاقة هائلة. افترض من ليبيا في القرن الثالث قبل الميلاد. ويجمع المؤرخون القدماء أنه كان دواء سحرياً لكل الأمراض المعروفة في العالم القديم. وكان ملوك ليبيا القدماء يصدرونه إلى مصر وما وراء البحار. ويعتقد الكثيرون أن فيه يكمن سرّ التحنيط إذ استخدمه القراعنة لهذا الغرض.

في الربيع القادم: آسيار لا ينبت إلا في تلك السهول. أوثق المهري جيداً حتى لا يفر وأتركه يرتع يوماً أو يومين وسوف ترى، ثم كرر له بلغة غامضة: «لا تنس أن تعقله جيداً». نعم. آسيار في القبيلة مرادف للجنّ والجنون. من ذاقه جنّ سواء أكان ذلك حيواناً أم إنساناً. وخشية الأهالي من هذا النبات الخرافي متوارثة. وأول ما يعقل الولد الحياة الدنيا وتسلم له أمر الجدبان يقولون له: «إياك أن ترعى الجدبان في قرعات ميمون. هناك آسيار. في العشب ألف دواء. ولكنها تمرّ كلها من باب الجنّ. الجنّ هو الذي يملك المفتاح إلى الشفاء من الألف داء. إذا استولى عليك شفاك من أي مرض. ولكن ما فائدة أن تشفى من الداء إذا كنت ستفقد عقلك؟ من فقد عقله فقد نفسه. إياك من آسيار في قرعات ميمون!».

قرأت أمه على رأسه هذه التعويذة أيضاً عندما وعى الدنيا ونهياً للانطلاق كي يرعى الجدبان في الوديان.

سرّ الشيخ موسى أرميه. هل سيجنّ الأبلق؟ هل سيفقد عقله؟ كيف يفقد الحيوان عقله؟ هل تجحظ حدقاته وتحمر مقلناه ويعلو الزبد شفّيته ويحطم رأسه على الأحجار كما يفعل الرجال المقيدون بالوجد في حفلات السمر الليلية، أو الدراويش من أتباع الطرق الصوفية الذين يطوفون على النجوع ويهيمون في البرية، يضربون الدفوف ويجذبون طوال الليالي؟

لا. لا. هذا مصير أنعس من الجرب. طاف به النجوع بحثاً عن الخبراء العليمين بداء الحيوان، لم يطق أن يرى صديقه يعاني من الاضطهاد على أيدي الرعاة الأشقياء. عزلوه عن قطعان الإبل خشية العدوى، وتركوه يرتع وحيداً في المراعي، فأثر أن يرافقه بنفسه في محنته. يذهب معه إلى المراعي منذ الفجر ولا يعود إلا في الليل. يقسو عليه أحياناً فيوبخه قائلاً: «هذه نتيجة طيشك. ماذا كسبت الآن من مغامراتك؟ ألم تسمع كلام الشيخ موسى؟ الأنثى أكبر مصيدة للذكر. سيدنا آدم أغوته امرأته فلعنه الله وطرده

من الجنة. ولولا تلك المرأة الجهنمية لمكثنا هناك ننعم بالنعيم ونسرح في الفردوس. في الحفر دائماً تختبئ الأفاعي والعقارب، تلدغ كل مستهتر يحشو عضواً من أعضائه هناك. فماذا فعلت بك ناقتك الناعمة؟ هي أيضاً أفعى. ناعمة ولكنها تلدغ. العدوى هي الثمن، فتحمل الآن واصبر.

يسبل الحيوان جفنيه خجلاً وينجيه في ندم: «أو - و - ع - ع - ع». يتسم أوخيد بمرارة ويواصل: «آه. الندم، الندم لا يفيد. ماذا ستفعل بداء كالجرب؟ ألا تفهم أنه أخطر من الوباء. أخطر من الجدري ومن الطاعون؟ إنه. إنه. اللهم احفظنا. أنت لا تفهم أن الحياة كلها مصائد. إذا لم تنتبه لمواقع رجلك وقعت في الفخ. يا لطيف! ولكن معك حق. أنا أيضاً ساهمت في غفلتك لأنني شاركت في تربيتك. أمك لم تنعم برؤياك جملاً عندما جاءني بك الزعيم الجليل. ولكن قل لي بالله: كيف أنير عقلك إذا كنت أنا نفسي مثلك أحتاج إلى من يعينني على تنوير عقلي؟ الغشاوة قدرنا، والمصائد هي التي تعلم الحيلة. آه. الغفلة. الغفلة. اقترب المهري الحزين وتمسح بذراعه. تألم أوخيد مغيراً لهجته: «لا يهم. لا يهم. لا تكثر. يعيرك الحمقى بالجرب. لا تعمرهم اهتماماً. سنجد حيلة. لا بد أن نجد حيلة. اصبر فقط. لا بد أن تصبر كثيراً إذا أردت أن نخرج من الورطة. الحياة هي الصبر كما تقول العجائز».

أخذ رأسه في حضنه، ووقف طويلاً في المرعى يعزبه.

«الصديق يراعي نفس بهيمته. أما مراحم الأشرار فقاسية».

المهد القديم

سفر الأمثال

الإصحاح الثاني عشر



في تجواله بين التجوع حصل على زيت غريان من رعاة قبائل أولاد بوسيف. جزّ الوبر ومسّد الجلد المسودّ بالزيت ثلاث مرات في اليوم. لانت الجلد بعد أيام ولكن السواد ظلّ يأكل الجسم وينتشر إلى أسفل ليطوق البطن ويلتهم القوائم. خبير آخر عليهم بداء البعير جاء من «آير» (\*) برفقة قافلة تجار أعطاه مرهماً معتماً في قنينة صغيرة وقال إنه استحضره من الأعشاب. استعمل الدواء حتى نفذ. بعد أسابيع تساقطت الجلد السوداء فنزّ الدم ولم يلتئم الجرح. ما عاد يطبق أن يرى خيوط الدم وهي تقطر من جسم الأبلق. في عيون الناس رأى الشفقة والتعاطف. . تعاطف معه لا مع الحيوان المصاب.

الأبلق الآن ليس أبلق. اختفت البقع البديعة من الجسد الرمادي. اختفت النظرة الذكية من العينين الساحرتين. القوام الرشيق الممشوق تحوّل إلى هيكل أسود مترهل مبقع بالظلمة. خيال شاحب وبائس لكائن آخر. سبحانه الله كيف يصنع المرض من المخلوقات كائنات أخرى مختلفة. المرض يصنع ذلك مع الناس أيضاً. المرض الطويل يفعل ذلك.

في هذه المرحلة لم يعد الأبلق يقترب منه في النهار. يقضي اليوم مهموماً، يتابع انسياب الملائكة في سراب الأفق. أصبح يخجل من

(\*) آير: الصحراء الواقعة بين مالي والنيجر ونيجيريا.



مداعباته أمام الناس . وحتى إذا أقبل إليه ليمسده بقطرات الدواء يتملص ويحاول أن يفلت . وفي بعض الأحيان يشتكي في بؤس : «أوو - ع - ع - ع...» .

في تلك الأثناء يتسلل إليه مع الظلمات بعد أن يكون كل شيء في الصحراء قد همد ومات . لا يبقى في عمق الليل إلا الجن ، يسعون في العراء ويهمهمون بالمحاورات الخفية . يزحف المهري المسكين ويدس رأسه في لحاف صديقه النائم . . . صديقه الذي يعاني الأرق ويحاول أن يختطف إغفاءة قبل أن يضرب الفجر الأفق بالنور . يتمسح بالغطاء ويتحسس بشفتيه المتدليتين الأجزاء المكشوفة من جسمه ثم يدس رأسه المستطيل داخل اللحاف مصدراً أنيناً موجعاً . يحيطه أوحيد بذراعيه ويكيان معاً ، كل منهما يمسح دموع الآخر بلسانه ، يتذوق طعم الملح والألم . عندما تنزل ظلمات الموت لا يملك المخلوق إلا أن يبكي ويلعن الدمع والألم . يخرج أوحيد رأسه ويرفع بصره إلى القمر الخجول الشاحب ويشكو : «لماذا يخلق الله الخلق إذا كان الموت بالمرصاد؟ لماذا يتعذب المخلوق قبل أن يموت؟» . ثم يعض شفته ويردد : «لعن الله الأنثى ! لعن الله الأنثى !» .

وفي يوم مل الشكوى .

قال لصديقه في الليل ، تحت الغطاء ، حتى لا يسمعهما مخلوق : «خلاص . بكفي . شبعنا من العذاب . يجب أن نفعل شيئاً حتى لو كان جنوناً . سنجرب حيلة الشيخ الحكيم . علماء الشريعة القادمون من فاس حكماء . الصحراء كلها تعرف ذلك . حتى لو كان ثمن ذلك هو الجنون فماذا يضر المخلوق أن يكون مجنوناً؟ ثم ألا ترى أننا سنجن ذقنا أسيار أو لم نذقه . أنا وأنت في طريق الجنون . لا أريد أن أرى جسدك يتساقط قطعة قطعة . ساجن قبل أن تموت . نعم . أنت ستموت وأنا ساجن . هل رأيت

ماذا يمكن أن تكلف حماقة صغيرة في ساعة صغيرة؟» .

سافر إلى الحمادة الغربية . توجه إلى النصب الوثني القديم القائم بين الجبلين . ولم يكن يعلم أنه لو تأخر في سفره أياماً أخرى لنجح الوالد في قتل الحيوان المريض .

الأب كان يخطط لإنهاء الألم بإطلاقه رصاصة على رأس المهري الأجرع .

في مدخل الجبلين المتقابلين، في خلأ لا ينتهي، وقف نصب  
 المجوس في صدر ربوة وحيدة. في الزمان القديم لم يظنوا أنه صنم. كان  
 الضريح مزاراً للجميع. حتى الفقهاء وعلماء الدين. أجمع الجميع أنه  
 ولي شهد بداية الفتوحات. بل قالوا إنه أحد الصحابة مات عطشاً في  
 الصحراء وهو يجاهد في سبيل الله. فقصدته الرحل في الصحراء، بأنون  
 خلسة أو يجيئون زمرّاً. ينحرون له القرايين ويسفحون دم النذور. حتى جاء  
 العراف الوثني من «كانو». زنجي عجوز يزين رقبته المجعدة بالفضضة،  
 يعقد من أصداف النهر. يضع على رأسه عمامة سوداء. جيبه الفضفاضة  
 أيضاً سوداء. يقال إنه مثل الغراب. يتنقل وحيداً على ناقة عجفاء ويكره  
 المخالطة. يمشي التبع ويصق اللعاب في وجوه الأطفال والفضوليين.  
 العراف المخيف أول من حطم الأسطورة وقرأ الرموز المحفورة على قاعدة  
 الصنم. قال إنه الملقب لإله صحراوي قديم. وتوصل إلى فك الشيفرة في  
 أبجدية التيفيناغ، ولكنه رفض أن يوح بالسر المحفور عند قدمي الإله.  
 وبعد شهور وجدوه ميتاً في السهل المجاور دون أن يتمكن الأهالي من  
 حمله على إفشاء سر التسمية الوثنية قبل وفاته المفاجئة.

قاعدته صخرية مثلثة الزوايا. في نهاية المثلث تجسم صورة الإله مباشرة  
 بصخرة كبيرة. فوق الصدر، ارتفع الرأس، فتم الاستغناء عن الرقبة أيضاً.



ملامحه خفية تنطق بعبادات آلاف السنين. الأحجار التي تعودت أن تتلقى التوسلات أمداً طويلاً تكتسب هذه الملامح فقط. خليط من اللين والقساوة، الرحمة والانتقام، الحكمة والكبرياء، و... الصبر... صبر الخالدين الذين ألفوا غدر الزمان ووحشة الوجود. العين اليمنى أكلتها رياح القبلي المحملة بالحصى والغبار. رياح آلاف السنين، أكلت العين وجزءاً من الوجه. أما الناحية اليسرى فما زالت تنطق بتاريخ الصحراء الحزين، تتجه صوب الجبل الشمالي، تنظر إلى أعلى، نحو القمة الملفوفة بعمامة خفيفة زرقاء. حول الوثن انتشرت بقايا عظام قديمة. تفتت بعضها وظلت أطراف أخرى سالمة... أطراف النذور القديمة.

أتاخ أوخيد أبلقه الأسود، ووقف طويلاً، يحاول أن يقرأ أسرار الصحراء في هيئة الصنم الخفي. أخيراً ركع ورفع يديه وصاح: «يا ولي الصحراء. إله الأولين. أنذر لك جملاً سميناً، سليم الجسم والعقل. اشفِ أبلقي من المرض الخبيث واحمه من جنون آسيار. أنت السميع. أنت العليم». ثم عفر جسم المهري المتآكل بتراب الضريح، وتوسده ونام حتى توهجت الصحراء ببهاء الفجر. صنع كوباً واحداً من الشاي الأخضر، وواصل رحلته إلى القرعات الغربية.

في الليل، عندما توسد الحجر ونعس، رأى الأبلق يغرق في الوادي، جرفه السيل المباغت وابتلعه. تشبث باللجام ونازع الماء البارد. السيل ينتزعه وهو ينتزع المهري من الجهة الأخرى. سقط مرات على ركبتيه الأماميتين وغرق في الماء العاتي حتى اختفى رأسه. قاوم. وشد هو الرسن من الناحية المقابلة. لاحظ تفصّد الدم من خياشيم الحيوان المناصل، وخشي أن تتمزق الشفة الملجومة. استمر الصراع طويلاً... طويلاً جداً. حتى خفّ الهدير ونزل مستوى الماء المعتم في الوادي الهائج. ثم رأى لدهشته أن الماء الداكن يتحوّل إلى رجال شياطين يشدون مهريه من ذيله

إلى أسفل عازمين أن يرموا به في هاوية ظلماء. أفاق من نومه ورأى الوهج الأول يشق ظلمات الفجر.

فكر طويلاً في هذه الإشارة. أحلام الأضرحة تستدعي خبرة العرافين في التفسير. الشيخ موسى فهميم في رؤى المقابر الإسلامية. أمّا عرافو «كانو» فوحدهم بتخصصون في قراءة الرؤى التي توحى بها الأضرحة القديمة. الأضرحة الوثنية. عرافو «كانو» يرافقون قوافل التجار في الصحراء، فأين يستطيع أن يربط للقوافل؟ لا ينبغي الاستهانة بوحى القبور. والمكابدة في البحث عن العلماء والعارفين واجب في شريعة المسلمين، مثل الجهاد في سبيل الله. هكذا يروي الشيوخ. ولكن أين يمكنه أن يجد عالماً في الأضرحة عبر هذا الخلاء؟ أين يقابل عارفاً بإشارات الأصنام؟

جدّه لأمه شيخ حكيم. إذا رأى رؤيا في نومه لا يغادر فراشه حتى يأتوا له بالعرافين ويفسروا له الرؤيا. ويتردد في القبيلة من يحلو له أن يقول: «إذا حذرك الله وكشف لك السرّ فعليك أن تتمهل وتتعضّ وإلا فلا تلومن إلا نفسك». وقد أمن غدر الخائنين: الزمان والإنسان، فلم يباغته حدث ولم يغافله عدو. ويجمع الجميع أن كل حكمته كانت تنبع من عنايته بالإشارات الخفية. ويقال إن الموت أيضاً لم يفاجئه. رأى في منامه أنه يقف تحت السدرة الأسطورية(\*) الضائعة في غرب الصحراء ويشرب من ماء البحيرة. فقال له العراف في الصباح: «أعد نفسك للرحلة. إنها سدرة المنتهى»(\*\*). فحضّر كفته، وغسل جسده وارتدى أفخر لباسه. وانتظر

(\*) السدرة الأسطورية الضائعة: أسطورة للطوارق تتحدث عن سدرة في مكان ما من الصحراء، تحتها نبع، من وجدها وشرب من النبع عاش خالداً أبداً الدهر.

(\*\*) سدرة المنتهى: وردت في القرآن في سورة النجم: «وما كذب الفؤاد ما رأى». اقتمارونه على ما يرى. ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى». الآيات من ١١ إلى ١٤. وقد =



ملك الموت. وظلّ يفعل ذلك كل يوم حتى لفظ أنفاسه بعد أسبوع من تاريخ الرؤيا.

- ٧ -

فوق «قرعات ميمون» تدلّت سحب بنفسجية كثيفة وتلاحمت على رؤوس الجبال المتباعدة في الخلاء الأبدي الممتد. كل جبل يقوم وحيداً في العراء، ويصطف في الطابور الذي يخرق الصحراء إلى شطرين. في المسافات الفاصلة بين الجبال المعزولة في بحر الأرض الطينية الحمراء، انتشرت دوائر العشب وفاحت الزهور البرية. نهاية الربيع. ولكن الشمس لم تتجبر بعد. جنى بضع قطع من الترفاس<sup>(\*)</sup>، وقتل ثعباناً بشعاً بالهراوة، ثم جدّ في البحث عن العشبة الموعودة.

مع الأصيل عثر على حقل كامل. ارتفعت النبتة الخرافية مسافة ذراع عن الأرض. أوراقها خضراء داكنة، تدلّت فروعها، عادت إلى الأرض، وتخلّت عن الساق الرقيقة الساحرة. في قمة الساق تكشفت زهرة صفراء، وفاحت بشذى غامض. زهرة الجن!

جرّ الجمل إلى الحقل مغالباً القشعريرة والخوف. خوف دسه في رأسه ميراث الأجيال من الأساطير والإرهاب. قيد قائمته الأماميتين بعقال الليف المتين. شدّ اللجام إلى الذيل، وحرص أن يترك الجمل مرتخياً حتى يعطي للرقبة حرية الحركة في أثناء الرعي. وقف متفكراً، محاولاً أن يتذكر حيل

(\*) الترفاس: هو الكما ينمو أساساً في الحمادة الحمراء. وهو ثلاثة أنواع: الأبيض والأسود والأحمر، حسب التربة.

أولها محي الدين ابن عربي اهتماماً كبيراً سواء في «الفتوحات المكية» أو «كتاب المعراج». يقول في «سيرة المنتهى» في «الفتوحات»: «قلت حسبي حسبي... قد ملأ أركانها، فما وسعني مكانها، وأزال عني به انكائي. فحصلت في هذه الأسرار معاني الأسماء كلها، فرأيتها ترجع إلى مستحق واحد وعين واحدة، فكان ذلك المسمى مشهودي، وتلك العين وجودي، فما كانت رحلتي إلا في، ودلّاني إلا علي».









- إذا كان ذلك ضرورياً فخذني معه . لا أريد أن أبقى . أنا يتيم . أنا وحيد . . أنت تعرف . خذني . خذنا معاً .

في تلك اللحظة، انتزع المهري رجله من الأرض، وانطلق عبر الخلاء . تشبث أوتيداً باللجام، وجرى محاولاً أن يساير الأبلق ويعيده إلى الصواب .

بدأت الشمس تحتضر، توارت في غلالة بنفسجية لسحب شفافة، التفت حول قمة الجبل المعزول عند الأفق، في أقصى الغرب .

انطلق الجمل تجاه القمة . عبر سهلاً كثيف الأعشاب، وصعد المرتفع، ثم هبط وادياً مزحوماً بالسدر . دخل في أدغال الشوك، ومزق جسده، فنزّ المزيد من الدم . من أطراف أوتيد أيضاً تفصّد الدم . تمزق ثوبه عند الأكمام . شوك السدر اقتطع من القماش القضااض، فكشف ذراعه حتى الكتف الأيمن . سال الدم من الذراع والساعد .

توسل للحيوان المجنون:

- ماذا تفعل؟ توقف . الهرب لن يفيد . مما تهرب؟ هل تهرب من نفسك؟ هل تهرب من قدرك؟ الشجاع لا يهرب من نفسه . الحكيم لا يهرب من قدره . إذا هربت منه تمكّن منك أيها الأبله . إذا أدبرت اعتبر ذلك جبناً . سلاحك ويغلبك . الجنّ قدرك . ألم أقل لك أن الأمر لن يستقيم إلا بالصبر؟ ألم أخبرك أن الحياة هي الصبر؟ توقف حالاً . انتظر . لدي سر آخر . . .

ولكن الحيوان لم يلتفت لتوسلات صديقه . في جوفه ألم أكبر من العقل ومن تحذيرات الأصدقاء . في جوفه نار موقدة . اللّي رجله في النار . . . اللّي جوفه في النار . . .

استمرت المطاردة . أوتيد يلهث ويسفح العرق . من أطرافه يسيل الدم .

المهري يسفح العرق والزبد والصديد والدم . النار تغلي في جوفه، فيرداد جنوناً، ويطير في الهواء . أمام عينيه حجاب . طار العقل وحلّ العماء . سادت الظلمات، وفقد الإحساس بالزمن وبالأشياء . لا يدري ما إذا كان يجري أم يقف ساكناً في المرعى . لم يعد يحس بجسمه، بنفسه، بأطرافه . الألم أكل الأطراف، أكل الإحساس . الألم أكل الألم . فمات الجسم، ومات الإحساس، ولم يبق إلا الجنون في الرأس . قطع وادي السدر، وصعد مرتفعاً آخر . وقع أوتيد على الأرض، فخرجته المهري بضعة أمتار . تمزقت الشفة العليا، وتحرر الجمل من اللجام . تدحرج أوتيد عبر المنحدر ويده تمسك اللجام . سيطر على عجزه بمحاولة بطولية ونهض . إذا أفلتت منه الآن وهو في قمة جنونه فلن يدركه إلى الأبد . سيفترقان إلى الأبد . هل كتب الله أن يودع صديقه القديم في هذه السقطة؟ في هذا المنحدر الشقي؟ هل حلت لحظة الوداع الأبدي؟ قفز وركض صاعداً المرتفع بيديه ورجليه معاً ممسكاً باللجام . تمزقت رثاه، وانثلت أطرافه، وعلا الزبد شفّته أيضاً . تناثر الزبد وهو يهبط المرتفع إلى الناحية الأخرى . آه . الهبوط فرصة . إذا لم يدركه في هذا المنحدر فسيفلت إلى الأبد . استجمع كل رجولته . . كل الشهامة . . كل النبل . . كل الأساطير المضادة للعار، واندفع عبر المنحدر . طار عبر المنحدر . سقط . نهض في لمحة بصر كأنه لم يسقط أبداً . لم يسقط . وفي لحظة كوميض البرق وجد نفسه يمسك بالذيل . لم يصدق . هل حدثت المعجزة؟ هل أدركه حقاً؟ هل ساعدت الأساطير الموروثة المضادة للعار؟ هل انتصر على نفسه؟ على عجزه؟ على ضعفه؟ إذن بالإمكان قهر الضعف الرهيب بالصبر . الصبر تعويذة ضد القدر . الصبر هو الحياة . هذا ليس وهماً . تأكد من ذلك منذ قليل . يا ربي هبني مزيداً من الصبر فيما تبقى من الرحلة .

تشبث بالذيل بيده اليمنى . وباليدين اليسرى استمر يمسك باللجام . هذه التعب فتباطأ بلا إرادة . انتزع الجمل وجرّه في العراء . وجد أن الجرّ يتيح

له أن يلتقط نفساً فاستسلم. تعلق بالذيل فحرث الأرض الطينية برجليه. حراثها طويلاً. صعد الأبلق الوهاد، نزل الروابي، عبر السهول، اخترق الأودية، أكلت الأحجار مداسه الجلدي، سلخت قدميه وساقيه، نهشت الأشجار البرية فخذيه، مزقت ثيابه. استرد وعيه، فحرك رجليه دون أن يتخلى عن الذيل. سحب وراه في خطوات شاسعة. جفت حلقه وبس فمه. فشل في أن يستحلب اللعاب. العطش. العطش. قدر الصحراء الخالد. الصبر أيضاً إله العطش. الصبر تميمة خالدة أيضاً في الصحراء. يا رب هبني صبراً. إذا وهبك الله الصبر في الصحراء وهبك كل شيء. الآلام في يديه لا تطاق. ألم يطلب هو بنفسه الآلام؟ ألم يطلب تخفيف الوزر عن الأبلق؟ الألم لا يهم. المهم ألا يفلت الأبلق. المهم شفاء الأبلق. المهم أن يقف على مفعول «آسيار» المسحور في النهاية. من يدري: ربما حدثت المعجزة وتعافى المسكين؟ ولكن يا ربي: هل من الضروري أن يمر الشفاء عبر الجحيم؟ هل يعدم الخلاص إلا في أقصى الألم؟ هل ثمن الإثم فادح إلى هذا الحد؟ هل الأنثى بلوى إلى هذا الحد؟ هل عين الحسد شريرة وقاتلة؟

ذراعه الأيمن سينتزع من كتفه. ذراعه الأيسر أيضاً. إذا لم يفعل شيئاً فلن يستطيع الصمود. ستنسلخ اليد وتتفصل عن عظمة الكتف. ماذا يفعل؟ اكتشف أن طرف اللجام ما زال في يده اليسرى. بدأ يربط يده على الذيل بواسطة اللجام الذي كان مضافاً من الجلد. اللجام لزج. تملص أكثر من مرة. لا. لا. أنصاف الحلول لا تجدي. لا بد من أن يحكم القيد. إذا لم يحكم الرباط جيداً أفلتت اليد وانزلقت عن الذيل. سيفلت الحيوان ويذهب كل العمل هباء. استعان بأسنانه ويده اليمنى. شد اليسرى إلى الذيل وأحكم حولها القيد. استجمع كل القوى الباقية كي يساير المهري في ركضه الخرافي. طمأن نفسه بمكافأة. قال لنفسه إنه سينال راحة بمجرد أن يحكم القيد. إذا كان القيد محكماً ضمن أن يلتقط نفساً. إذا نجح في

أن يربط اللجام جيداً نجح في أن يربط مصيره بمصير الأبلق إلى الأبد. لن يفلت. لن تختطفه منه الجن. سيقهر الشيطان نفسه. شعرة أخرى من الصبر. شعرة واحدة فقط.

نزل ستار العتمة.

ازدادت الصحراء وحشة وغموضاً وامتداداً.

زغردت الجنيات في جبل الحساونة.

شحنته الزغاريد بالقوة. الزغاريد تشحن الفرسان حتى لو كانت هدية من حناجر الجنيات.

أرخى يده اليمنى، وترك رجليه، فحرث الصحراء والظلمات.



ظلّ يتقلب طويلاً على الرمل من دون أن يعي أين هو ولا من هو. ويبدو أن شمس الأصيل هي التي أيقظته بأشعتها، فعادت إليه الحياة ولم يفق أو هو أفاق ولم يع. أو هو وعى ولم يعرف من ولا ماذا ولا أين ولا كيف. ظلّ منبسطاً على بطنه ولا يحس بشيء. أطرافه مشلولة أو مفصولة عن جسده. وعندما أدرك نفسه وأطرافه، شعر بالألم والصداع. الرأس يتحطم واليدان والرجلان تسليخ بالسكين. فتح عينيه. يده اليسرى معلقة في الذيل. الأبلق يبرك في الوادي هادئاً، ساكناً، محطماً أيضاً. بصق الدم ورأى جسمه. ما هذا يا ربي؟ لم تبق على جسده سوى الأسماك. تمزقت الثياب وأكلتها أشجار الطريق. هذا يقطع بأن الرحلة المجنونة مرّت عبر أودية عميقة كثيفة بالأشجار العالية. أعشاب السهول لن تطول قامته المعلقة في الذيل. جسمه كله موسوم بجروح عميقة. الدم يغطي الجسد والأطراف. حبيبات الرمل تبيست على الجروح. التزيف توقف في الليل. فمه أيضاً مليء بحبيبات الرمل. بصق مراراً حتى تخلص من التراب. حاول أن يتحرك فعجز. فتح عينيه فبهرتة شعاعات الأصيل. تفقد الأبلق فلم يصدق. الحيوان المسكين قطعة حمراء. أغمض عينيه مرة أخرى حتى يطرد الوهم. فتحهما فلم يتغير المشهد. قطعة حمراء. الدم لا ينزف. ولكن الجلد الأسود انسليخ وتقشّر. هل يعقل هذا؟ بذل جهداً عظيماً حتى حرك أطرافه وزحف يميناً. استعان بأعراف رتبة ترتفع فوق رهبة رمل. اكتشف أن اليد



ما زالت مشدودة إلى الذيل وتعيقه عن الاستمرار في الزحف. فك اللجام بأسنانه. عاند القيد طويلاً. كان يلهث. يتوقف عن العمل. يلتقط أنفاسه ويعود إلى المجاهدة. نجح. استلقى على ظهره، ورفع عقبرته بأنين وآهات. الألم.. الألم لا يطاق.. يتصاعد ويشند باستمرار. عاد يزحف. تفقده من ناحية اليمين أولاً. قطعة حمراء. الجلد الجرباء سقطت في الطريق. الأبلق تحرر من جلده كما يتحرر منها الثعبان. المهري مسلوخ تماماً. لم ير قيحاً ولا صديداً. حتى الدم جمد على الجلد الحمراء. حبيبات الرمل تثبتت بالبطن وأجزاء من الجنب الأيمن. الذباب اللحاح طن حول القطعة الحمراء ظناً منه أنها ذبيحة.

برغم الألم تفتقت نفسه بالفرح. هل سيشفى الأبلق؟ هل تحققت معجزة أسبار؟ هل موسى ولي حقاً؟ هل استجاب الضريح الوثني لتوسلاته ونذره؟

معجزة!

معجزة!

أحس بالعطش، فتذكر الماء. نسي أنه في خلاء مقطوع بلا قطرة ماء. هول المعركة أنساه أخطر حجاب في الصحراء: الماء!

بدون الماء لن تتحقق أي معجزة في الصحراء. حتى إذا تحققت معجزة فإن انعدام الماء يمحوها ويحولها إلى وهم. كل الدنيا وهم بدون ماء. ما فائدة الشفاء بدون ماء؟ جاء الشفاء وغاب الماء. جاءت الحياة، فأقبل الموت. بالأمس فقط أبدى الاستعداد لأن يضحي بأي شيء في سبيل أن يتعافى الأبلق. واليوم عندما راوده الأمل في تحقيق المعجزة سحب منه البساط ووجد نفسه في الخلاء المقطوع، بلا ماء. هكذا هي دائماً. النعيم مستحيل. إذا حضر الشيء غاب نقيضه. يحلو للشيخ موسى أن يقول: الكمال لله. في الشباب يتفتح الطيش، ولا تحل الحكمة والمعرفة إلا في

العجز والشيخوخة. فما فائدة الحكمة بدون شباب؟ ما فائدة معرفة بدون حياة؟

هكذا هي دائماً.

البارحة، أثناء هروب الأبلق من قدره، في ذروة العدو المجنون، نعس. نعس وهو معلق في الذيل، تسليخ الأحجار رجليه، وتمزق الأشجار جلده. وبرغم كل شيء، برغم التعب والعطش والجراح، نام. لا يعرف كيف حدث ذلك ولا متى حدث ذلك. فقد الإحساس بالألم أولاً. ثم فقد الإحساس بالعطش أيضاً، فنام كأنه فقد الوعي. برغم أنه يعرف الآن أنه لم يفقد الوعي. لو حدثت به ما حدث لما صدق. لو لم يعش تفاصيل الحدث المدهش لما صدق أبداً. ما أقوى الإنسان. الإنسان مخلوق خارق. لم يعرف ذلك من قبل. مخلوق صغير، عاجز، قاف، تقتله بعوضة أحياناً. وفي نفس الوقت لا يوجد شيء في الصحراء أقوى منه. قدرته على المقاومة تفوق طاقة الوحوش. فما سر هذا التناقض؟ هل هو تناقض أيضاً من النوع الذي يتحدث عنه مشايخ الطريقة أمثال موسى؟

عليه الآن أن يفكر في مقاومة أخطر عدو في الصحراء الكبرى: العطش.

هنا معيار القوة. هنا الاختبار.

انهار تحت الرتمة. حشا فمه بفروعها، وشرع يمضغها، ويمتص الرحيق. المرارة. ما أمر الرتم. استمر يلوك. غمره خدر. تبلدت أحاسيسه، وانشلت أطرافه مرة أخرى. تراجعت الآلام. آه. هذا مفعول الرتم، خدر الرتم. نهض بحرية. أحس بخفة وحيوية. لم يضيق الوقت. هرع إلى المهري. احتضن رأسه بين ذراعيه لحظات. الرقبة المسلوخة ما زالت لزجة. مسكين الأبلق. لو رآته أنشأ بهذه الحال لأنكرته إلى الأبد. تفعل فعلتها ثم تنكر وتقول لا أنت مني ولا أنا منك. كما يفعل الشيطان

الرجيم مع البشر تماماً. لعنهما الله معاً: الشيطان والاناث. بل من هي الأنثى إن لم تكن شيطاناً رجيماً؟

آه من الداء يا أبلق. أرايت ما يفعله الداء؟ يقلب هيئة المخلوق. ماذا سنفعل إذا تغير لونك ولم تعد أبلق؟ الشيخ موسى يقول إن الكمال لله. النعيم لا يتكامل. لا جنة. لا فراديس على الأرض. الفردوس في الآخرة فقط.

هنا، على الأرض، تكسب الشفاء، وتفقد الجمال. تستعيد العافية، وينزع منك الكمال. الكمال للآلهة وحدها. ربما هذا أفضل. سنتقي الشر، ولن يجد الناس طريقاً للحسد. القبح حرز. في القبح أيضاً حكمة. عانقه مرة أخرى، وهمس في أذنه:

- قطعنا نصف الشوط. اصبر. الآن سنقطع الجزء الباقي. . . الأصعب بالنسبة إلي. أنا لا أخزن الماء مثلك. سفحت كل مائي في الطريق المجهنون. الآن سنقذني. سنطلق إلى أقرب بئر في الأودية السفلية. إياك أن تردني إلى الواحات. سأموت في بداية الطريق. ليس في جسمي قطرة ماء واحدة. أنفهم؟ لن يرضيك أن تفقد صديقك القديم. لن يرضيك أن تفقد أخاك الجديد. إذا اختلط الدم بالدم واتحد الجسد بالجسد ختم العهد بالأخوة الأبدية. هذا ما تقوله العجائز. والآن. . . لن نضيع الوقت.

تفقد اللجام. ترتج وكاد يسقط على الأرض. نشبت برقة المهري. حفر تحت بطنه، ودس طرف اللجام في الرمل. انتقل إلى الناحية الأخرى، وسحب اللجام. جلس خلف السنام، وأحاط خاصرته باللجام الجلدي. لم يعجبه الوضع. فتمدد فوق ظهر المهري، والتصق بالجسد المسلوخ. أحس بلزوجة الجلدة الحمراء. الدم لم يتيبس بعد. جسده أيضاً عار. مزقت أشجار الطريق ثيابه. شعر أن دمهما المتخثر اللزج يتمازج الآن ويختلط. هذا ما تسميه العجائز بالتأخي. عهد الأخوة. عهد الوفاء

الأبدى. التحم الجسد بالجسد، واختلط الدم بالدم. في الماضي كانا صديقين فقط. أما اليوم فإنهما ارتبطا بوثاق أقوى. بالدم. أخوة الدم أقوى من أخوة النسب. قد تلد الأم شقيقين دون أن يكونا أخوين. شقيقان في الرحم. ولكن طالما لم تمتزج دماؤهما فلن يكونا أخوين أبداً. الأخوة ليست سهلة.

أحكم الوثاق حول جسده، وثبته على ظهر المهري. لكزه برفق، فانتصب المهري. وقف لحظات ثم تحرك. لم يعد على عقبيه. اتجه جنوباً، وقطع الوادي. صعد المرتفع، فتلقفه سهل لا نهاية له. غابت عيناه في الأفق الأبدى، ومشى بخطوات واثقة، واسعة، ثابتة. خطوات من يستعد لأن يقطع متاهة.

انتصف النهار.

في عيني أوخيد طافت الأشباح. لم يمض زمن طويل حتى غاب في الظلمات.



في السقطة الأولى وجد نفسه في برزخ(\*) بين السوعي والغياب، بين الموت والحياة. هرع إلى أسنانه، واستعان بها. شدّ يده إلى الذيل دون أن يفادر البرزخ. البرزخ أوحى له بأن يعود للحيلة الأولى. سقط ونهض مراراً. ترنّح، ولعن البول على فخذ المهري. ثم نزل الإلهام، وقيد يده إلى الذيل.

خيّل إليه أن الجمل ينحدر من جبل عال، ثم تجاوز مقامه في البرزخ، وعبر إلى الظلمات مرّة أخرى.

غاب طويلاً، وعندما عاد من رحلته الوحشية، وجد نفسه فوق البئر في «آوال». تحسس الفوهة الحجرية بحثاً عن الدلو. لم يجد الدلو. حرر يده بأسنانه. المعصم مطوق بالدم. اللجام حفر جرحاً عميقاً. لم يحس بالألم، ولكنه أحس بلزوجة السائل. لعق يده. لم يتذوق أي طعم. كل شيء غائم. كل شيء يغرق في الغيم والعتمة. عيناه فقدتا التمييز من زمان. ربما بسبب طول البقاء في البرزخ، بين الدنيا والآخرة، بين الموت والحياة. الحياة. الحياة هي التي تحرك أعضائه الميتة وتملي إرادتها التي لا

---

(\*) البرزخ: مقام العبور إلى الجنة أو إلى النار، وهو كحد فاصل بين تقيضين يحمل عناصر أو خاصيات كلا التقيضين.



بعد عماء طويل. رأى خيال الأبلق وشعاع الشمس المسلط كمهماز من نار. لقد نفذ الأبلق الوصية الصامتة وسحبه من اليم.

ثم.. عاد إلى البرزخ وتجاوزته إلى دنيا الظلمات من جديد.

تقهر. ما أقوى الحياة. ربط اللجام في قدمه، فوق الرسغ. أحكم الوثاق. وتفقد اللجام المربوط إلى الذيل أيضاً. ترنح وهو يحاول أن يهتدي إلى رقبة المهري، إلى رأسه. كان ينوي أن يبوح له بسر قبل أن يندفع إلى الهاوية. لم يفكر أنه لن يعود. ففكر في تلك اللحظة المدهشة أن الموت الذي يقول عنه الشيخ موسى إنه أقرب من جبل الوريد، هو أبعد من الصين. وكان ينوي أن يخبر الأبلق بذلك ويعطيه وصيته في أثناء غيابه في الهاوية. وفر عليه الشقاء فهرع إليه بشفتيه. لعق الأبلق وجهه، ولكنه عجز أن يرى عينيه. عجز أن يفتح فمه بكلمة. فقد القدرة على النطق. بعد العماء جاء الخرس. رفع يده اليمنى، وربت على رأس المهري. تبادل البدوي مع أخيه كلمة السر بالاطراف. ترنح مرة أخرى، وبحث عن فوهة البشر. تخطى الفوهة، وتدلّت رجله الطليقة من القيد في الهاوية. لم يفكر في الموت أبداً. فكر فقط فيما سيقوله للشيخ موسى: الموت أقرب من جبل الوريد حقاً ولكن ما أصعب أن يموت الإنسان مع ذلك. الموت أبعد من الصين. شيء آخر. إذا وجدت البشر غاب الدلو. وإذا وجدت الدلو فلا تطمع في البشر. هكذا دائماً. ظل ممسكاً بحافة البشر. بأحجار الفوهة. ترحز نحو الهاوية. لم ير. لم يسمع. لم يحس. جاهد في أن ينزل الأحجار الأولى مستعيناً بيديه حتى لا تؤدي السقطة الحرة إلى نزع الوثاق من الذيل. فعل ذلك آلياً دون عقل. قرر أن يفعل ذلك، ولكن القوى الخائرة، الأطراف التي حطمها الطريق والجراح، خائته فانهار في الهاوية.

في هذه اللحظة الصغيرة، الفاصلة بين الحجر الأعلى والماء الأسفل، مرّ دهر كالأبد.. دهر أبعد من الميلاد. بل رأى ميلاده في تلك اللحظة. رأى نفسه وهو يسقط من رحم أمه إلى الهاوية. سمع عويل الجنّيات في جبل الحساونة، ورأى أطياف الحوريات في الفردوس. تلقته إحداهن بغلايتها الشفافة وأودعته نهر الجنة. شرب من نهر الجنة، وشرق، وتقياً.

لم يتقياً داخل الماء. تقياً خارج البشر. إذ تفتحت عيناه ورأى لأول مرة

ورد رعاة الإبل إلى البئر. وجدوا الجسد النحيل، الدامي، العريان  
ممدداً أسفل القوّة. قدمه مشدودة إلى ذيل مهري أصيل مسلوخ الجلد.  
يقف فوق رأس صاحبه ويحمي جسده من غطسة الشمس. حملوه إلى ظل  
سدره مجاورة متوجة بطربوش كثيف. حشوا رأسه في الدلو، ودلقوا عليه  
الماء. الراعي العجوز فقط هرع وأشعل النار. وضع القدر، وأسرع إلى  
امتعته. جاء بحفنة من الحلبة، وطبخها في القدر. سقاه حساء الحلبة وهو  
غائب. سقاه بالملعقة مسنداً رأسه بيده كما تفعل الأمهات مع أطفالهن  
الرضع في أثناء تغذيتهم بالحليب.

تكلم بعد أيام.

خاطب الراعي العجوز عن الأبلق:

- هل تعلم أنه أبلق؟ هل رأيت في الصحراء مهرياً أبلق؟ لا تلتفت إلى  
حالته الآن. فهو مريض. داء عابر. لا بد أن يعود له لونه الأصلي.

تبادل الرعاة نظرات ذات معنى. أما الراعي العجوز فراقبه بفضول ثم  
ابتسم ابتسامة طيبة. ابتسامة من خبر الحياة وجرب الدنيا.

سأل أوخيد فجأة:

- هل تظن أنه سيفقد لونه الأصلي؟



قال العجوز وهو يخلط الشاي بين وعائين :

- العلم عند ربّي . شيوخ الطريقة في غدامس يقولون إن كل شيء يعود إلى الأصل في النهاية . العشب تنمو إلى رتمة والرتمة تزهر . والزهرة تتحول إلى ثمرة . والثمرة تعود بذرة وتسقط إلى الأرض . إذا كان اللون أبلق في الأصل فلا بد أن يعود مع الوقت إلى هيئته . اصبر ولا تخف .

ثم ابتسم مرة أخرى .

قال أوخيد بخيبة :

- إذا لم يستعد لونه فلا معنى للشفاء . الشفاء كلفنا كثيراً .

- وهل تريد أن تشتري العافية بغير شفاء؟

- لن تكون عافية إذا لم يعد الأبلق أبلق .

خشيت أنه يفقد المهري لونه الأصلي ، أفقدته طعم الشفاء وطعم النجاة من الموت . ألبسه الرعاية بالثياب ، وزودوه باللثام والزاد ، ورافقوه حتى أطراف الحمادة . ودّعوه ، وعادوا إلى أوديتهم السفلية .

منعه الحياء أن يدخل بالأبلق إلى النجع وهو على هذه الحال . كتفه بالعقال الذي زوده به الرعاية ، وتركه في المرعى الواقع شمال السهل حيث تتناثر البيوت .

من أمتعته كلها لم يبق سوى اللجام . كوره في كتلة حول معصمه ، وعزم أن يخفيه كتذكّار لتلك الرحلة . هذا الخيط البديع ، المضافور بعناية ، الموسوم بالوشم والنفوش والمثلثات والمربعات التي بهتت وشحبت بسبب طول الاستعمال ، هذا الخيط الجلدي كان صلته الوحيدة بالحياة . كان صلته التي أعادته من برزخه المشرف على الظلمات إلى الصحراء من جديد . الخيط الذي شدّه إلى الأبلق في الرحلة الوحشية الأولى فربط مصيره بمصيره وعاد وشده إليه مرة أخرى في الرحلة الثانية الممتدة بين فوهة

البئر وسطح الماء . المساحة الفاصلة بين الحدين . البرزخ الذي سمع فيه عويل جنّيات جبل الحساونة ورأى فيه حوريات الفردوس . اللحظة التي سقته من نهر الجنة . اللحظة التي امتدت دهرًا يعادل كل حياته في الصحراء . لحظة السقوط في الهاوية التي أضاعت روحه بوهج غامض لن ينطفئ . ولولا الخيط الواصل بين الحدين لما كانت هذه اللحظة الخفية .

الومضة الخفية التي عجز أن يذيع سرّها حتى لنفسه . ربما لم يعجز ولكنه هاب وخاف . هل هذا ما يراه السكاري بالوجد؟ هل هذا ما يسمّيه شيوخ التيجانية(\*) «لقاء القدر»؟ لقد رأهم في واحة «آدرار» يجذبون بوحشية حتى إذا تمّ لأحدهم «اللقاء» استل السكين وغرسه في صدره حتى يقطع طريق العودة وينعم باللقاء الأبدي ، فاتهمهم شيوخ القادرية(\*\*) بالبدع وناصبوهم العداء . نشب العراك بين أتباع الطريقتين مراراً ، وامتد هذا النزاع إلى الصحراء نفسها . نقله إلى المراعي أولئك الأفراد المتجولون أو المرافقون لقبائل الرّحل . فهل رأى القدر الجليل في ومضة تلك الغمضة؟

الشيخ موسى من أتباع القادرية .

زاره في الخيمة التي نصبها أبوه خصيصاً لاستقبال الزوّار والمهتئين له على السلامة من التيه . قال له :

- لا يشتري الشيء الجميل إلا بثمان باهظ . العافية أجمل ما في الدنيا فلا تندم على ما حصل .

ثم اختلى به في العراء مع حلول المساء ، وعزّاه بسؤال :

- هل تألمت كثيراً؟

(\*) التيجانية : نسبة إلى العالم الإسلامي التيجاني الذي أسس هذه الطريقة في القرن التاسع عشر .

(\*\*) القادرية : نسبة إلى العالم الإسلامي عبد القادر الجيلاني الذي أسس أحد أهم المذاهب الصوفية في القرن الثاني عشر الميلادي .

لم يجبه أوخيد. أوخيد يقلقه شيء آخر. لم يستطع أن ينتظر. فسأل شيخه:

- هل أطمع أن أرى الأبلق في أصله؟

استفهم الشيخ بإيماءة، فأوضح الشاب:

- هل يسترد الأبلق لونه؟

ابتسم موسى في العتمة، وقال:

- الله جميل يحب الجمال. وإذا اشتريت له الشفاء بهذا العذاب فلا بد أن تدفع مقابل الكمال أيضاً.

لم يفهم أوخيد، فأوضح الشيخ:

- التكفير، الطهارة. ألا تفهم؟

- الطهارة؟

- نعم، لا بد من الإحصاء.

- الإحصاء؟

- وماذا تظن؟ ألم نتفق على أن لكل شيء ثمناً؟

....

- البدن آثم. البدن كله خطيئة. يلزم نزع السبب من أصله.

صمت الشاب طويلاً قبل أن يقول:

- لا أستطيع أن أنفرد بالرأي. لا بد أن أستمير. لا بد أن أفكر.

ثم استدار واختفى في العتمة.

- II -

في خلوتهما بالمرعى، قال له:

- اعتقد أن ما فعلته بنا فعلتك يكفي. لا يجيء من النوق إلا الهم أم إنك ترى رأياً آخر؟

تخشّن الجلد الجديد، والتأم الجرح. اختفت الحمرة المقرزة، ولكن الوبر لم ينبت بعد. لم يعلق المهري على اقتراحه، فواصل الشاب:

- الشيخ موسى يقول لا بد من نزع السبب. البهاء ليس سهلاً أيضاً. كل شيء يطالب بقربانه. لن تتألم طويلاً. سنفعل ذلك في الصيف. الصيف أنسب موسم.

نفض الأبلق رأسه بعصبية. هل هي علامة رفض؟

سارع أوخيد:

- لا. لا. انتظر. لا تسرع فتندم. ما حدث لا يليق بك. الجرب لا يليق بالفرسان. لا يليق بالسلاات النبيلة. هل رأيت أبلق مصاباً بالجرب؟ انتظر. أنت بهي. أنت جميل. الجمال لا يقدر بثمن. لا يشتري بثمن. أنا على استعداد أن أدفع حياتي ثمناً للجمال. أنت لا تعرف معنى أن تكون أجمل مهري في الصحراء. آه. آه. ما سنفعله سيزيدك رشاقة. ستزداد



قامتلك انساقاً. صدقني! اسمع كلامي. هل تظن أنني سأفعل لك شيئاً  
يجلب السوء؟ هل تسيء بي الظن؟

فتح الأبلق فكيه على اتساعهما، وبدت في عينيه الذكيتين اللتين عاد  
إليهما الألق والبريق، مشروع ضحكة خبيثة.

ضحك أوخيد أيضاً. قال:

- فهمت. تريد أن تقول إن الأنثى أجمل. لا. لا. لا تخطيء بالله.  
جميلة حقاً. ناعمة حقاً. كالأفعى. ولكنها تلدغ كالأفعى أيضاً. لقد جربت  
لدغتها. تعرف ماذا فعلته بنا لدغتها في المرة الماضية. لا. لا. هذا  
يكفي. استع واللعن الشيطان.

ربت على رقبته وتفقد الجلد وتمتم:

- عندما تنتهي من همك ونخلصك سنبداً مشواراً آخر. ستتعلم الرقص.  
المهاري النبيلة لا بد أن تتعلم الرقص أيضاً. الرقص. الرقص. أنت لم  
تجرب الرقص. سوف يغنيك عن الحب. صدقني. ستطير في الهواء وتعبر  
السموات. تشق الفضاء حتى ترى الله. أليس أن ترى الله في السموات  
أفضل من الجري خلف النوق الحمقاوات على الأرض؟ قل لي..

جلس في العراء أمامه، وقال وهو يعقد يديه حول ركبتيه:

- ولكن لا بد من الطهارة. لن تفوز بالجمال ولن تلقى الله بدون طهارة.  
الطهارة هي الشرط. أعترف لك أنه عمل قاس، ولكن ليس لدينا خيار.

ثم حل الصيف، وجاء موعد العمل. تذرّع أوخيد بالسفر إلى «القريبات»  
لجلب إبله النائية هناك. ترك الأبلق لأيدي الجلادين. الشيخ موسى وحده  
عرف أن سفره ليس للحاق بالإبل وإنما هرباً من اليوم الموعود.

في اليوم التالي لغيابه، تكأكا الرجال على الجمل المسكين. النصف

الأول من النهار قضوه في منازعته وتطهيره من «البلاء»، وأنفقوا النصف  
الثاني من النهار في إجباره على ابتلاع الخصيتين تكميلاً للطقوس.

عاد أوخيد من رحلته، فوجد المهري مهموماً. داعبه. وسّد على جلده  
الملثم، ولكن عينيه ظلّتا تفيضان بالحزن. اختلى به في المراعي  
الجنوبية، وأخرج من الجراب شعيراً، طرحه بين راحتيه، ولكن الأبلق  
أشاح بوجهه. لاحقه بالطعام، ولكن الحيوان أصرّ على موقفه. قال أوخيد  
وهو يعيد الحبوب إلى الجراب:

- أعرف سبب جفائك. أنت غاضب لأنني تخلّيت عنك. أنا لم أتخلّ  
عنك. سبق واتفقنا. الآن ضمنا عودة اللون. الآن ستعود أبلق كما كنت.  
ألا يسرك أن ترى نفسك أبلق، جميلاً، نادراً؟

اغرورت عينا الأبلق بالدموع، فاحتضنه أوخيد.

مكثا طويلاً متعانقين في المدى الأبدي قبل أن يتكاثف المساء.

Handwritten text in Arabic script, likely a religious or philosophical treatise. The text is written in a cursive style and is somewhat faded. It appears to be a continuation of a previous page, as indicated by the vertical line on the left side of the page.

«الالهة لا تغفر الحث بالوعد».



الأبلق لم يغفر له، فهل أخطأ التقدير؟

الفضيحة في ساحة الرقص دليل. الجمل لا ينسى الإساءة. الجمل مثل  
العبد. إذا أسأت له فاحذره. هكذا يقول الرعاة الحكماء.

وبدل أن ينال قصيدة مديح، نال قصيدة هجاء قاسية من الشاعرة  
الملعونة.

بعد يومين، ترددت أصداؤها في النجع. كان مطلعها: «اللون أبلق...»  
والرأس أحمر». الملعونة. سيقطع لسانها. سيذيقها طعم السوط.

في ذلك اليوم، بعد الفضيحة، أخذ المهري إلى المرعى، وحاسبه في  
الخلاء.

أناخه تحت السدرة، وصرخ ملوحاً بالسوط في الهواء:

- الآن ستخبرني ماذا فعلت لك حتى تفعل بي ما فعلت؟ الآن ستقول لي  
لماذا شوهتني بالعار؟ كان عليك أن تشكرني بدل أن تفعل بي ما فعلت.  
انظر إلى لونك. عاد أبلق أكثر من ذي قبل. ولو لم أنقذك من النوق  
الحمقاوات لما هنت بهذا البهاء. فهل أستحق منك، بعد كل هذا، مكافأة  
كهنه؟ قل لي...

احتج المهري، واشتكى محاولاً أن يشيح بوجهه، ولكن أُوخيد اعترضه، وصاح غاضباً:

- لا تنهَرْب. يجب أن نتحاسب اليوم. ألم تسمع بالقصيدة التي نلتها من الشاعرة اللثيمة؟ كانت تنصِّد أخطاءنا من زمان. حجزت عندها قصيدة مديح فاشتَرطت أن تراك راقصاً. تمردت في الرقص نكابة بي، فانظر ماذا كانت النتيجة؟ ألفت قصيدة هجاء، فهل يرضيك هذا؟

نهض، وضرب كفاً بكف، وتمشَّى في العراء. دحرج الأحجار بنعله، وردد:

- حماقة. حماقة. بدل أن نعجل بدفع ديننا نتخاصم ونتعارك. يجب أن نوفي بالندَر. هل نسيت النذر؟

المهري لم ينس النذر. أُوخيد هو الذي نسي النذر. لم ينسه تماماً ولكنه اشترى مهرياً من الشنقيطي المهاجر إلى مكة. استبدله بكلمة تواتية(\*) بدیعة. جاء الشيخ من مراكش وقال إنه قرر أن يترك الدنيا لأهلها ويقيم في مكة نهائياً ليجاور قبر الرسول فنحروا له معيَراً واستضافوه ثلاثة أيام. تخلص من بقية ممتلكاته وباع آخر حيواناته. فكان المهري هدية من الشيخ الزاهد. وأخذ منه الكلمة ليس من قبيل المقايضة كما قال وإنما لحاجته إلى سجادة للصلاة.

تذكر أُوخيد الكلمات التي نطقها في وعده عند ضريح ولي الأولين: «يا ولي الصحراء. إله الأولين. أنذر لك جملاً سميناً سليم الجسم والعقل...». والمهري لا هو بالسمين ولا العاقل ولا يملك الجسم السليم بعد. فقرر أن ينتظر حتى يكبر فيسمن ويعقل ويسلم جسمه. عندما حدثت الفضيحة في ساحة الرقص كان المهري البكر لا يزال يسمن ويرتع في

(\*) كلمة تواتية: تشتهر توات بصناعة النسيج والسجاد، خاصة الكلیم.

المراعي الجنوبية، فرأى أُوخيد اليوم إشارة فيما حدث. الولي أعلن عن نفسه وحذر. طلب التعجيل بقربانه.

ثم تتابعت الأحداث، وجاء القدر بالغفلة، فوجه المصير في مجرى آخر.

ليس ذلك غريباً. فالإشارة، مثل النبوة، تومض مرة واحدة.



«لا بارك الله لك فيها».

بهذه الوصية بعث له أبوه مع الشيخ موسى.

لم يتوقع إجابة مثلها، فطافت في عينيه سحابة غضب، فهدده موسى بسبابته: «تمهل. لا كما يجيب الأب يجاب». فبلغ غضبته، ونهض كي يخفي قهره في الصحراء.

والسبب أن حواء نزلت على القبيلة تهش معزات عجفاوات.

جاءت الحسناء من «آير»(\*) مع أقاربها هرباً من الجذب الذي حاق بتلك الصحراء في السنوات الخمس الأخيرة. ويرغم أن البلاء كان بادياً على الحيوانات البائسة إلا أن الحسناء لم تنقصها النضارة ولم يفقدها طول الطريق البهاء. وإلى جانب جمالها تمتعت بروح مرح وجاذبية. هذه الجاذبية هي التي صرعت أوخيد في أول لقاء.

الجاذبية. الجاذبية. آه من جاذبية الأنثى. إنها ذلك الجانب الخفي في المرأة. إنها واضحة وبسيطة مثل الصحراء، ولكن ليس ثمة شيء يفوقها غموضاً وخفاء. إنها كهمهمات الجن في جبل الحساونة تسمعها ولكنك لا تستطيع أن تميز الكلمات. تسمع النطق ويغيب عنك المعنى. هذه هي

(\*) آير: يطلق آير أحياناً أخرى على نمبكتو أو أغاديس أو كانو.

الجاذبية. لا أحد يعرف ما هي ولكنها تجذب وتجذب. قد توحى بها الفتاة، أو ابتسامة خفيفة أو نظرة عابرة، أو هزة من الرأس، أو طريقة النطق بالكلمة، أو حتى مجرد رنة، نغمة، في الصوت. الجاذبية هي الجمال الخفي الذي خلق كي يصرع أمثاله من الرجال.

تعرف إليها في حفل ليلة قمرية، وتابع ابتسامتها السحرية في الضوء الباهت، وتابع خيال قامتها الهيفاء وهي تنتقل بين النساء. ثم سمعها تغني. يا ربي. ما أقوى صوتها. تغني من قلبها. كأنها تنوي أن تنزع الوحشة من قلبها. وحشة الحياة وقسوة الصحراء. وكل ما عجزت جاذبيتها عن التصريح به عبر صوتها الإلهي عنه. وكل من سمعها تغني في تلك الليلة، وقع في الوجد وجذب. حتى هو وقع في الوجد وجذب مع الشباب حتى الصباح.

التقى بها بعدها مراراً، في ليالي السهر وفي المراعي. أسمعته الأغاني الربانية في الخلاء، وأنصت للوعة صبية طردها الجذب والجفاف، ودفعها للهجرة والغربة عن بلادها الأصلية. ولم يكن اصطلياد هذه النغمة صعباً على أهل الصحراء، المهاجرين الأبديين. فمن في الصحراء لم يذوق طعم الجذب؟ من لم يطرده الجذب؟ من لم يهاجر؟ من لم يتغرب؟ هذه الأشياء قدر الصحراء. وكل أغاني الصحراء تعبير عن الشجن والجذب والاعتراب. . . الاعتراب الأبدي والحنين الدائم للعودة إلى السكينة والأصل. . . حنين إلى تلك الواحة الرحيمة التي لا وجود لها. . . الواحة الأصلية. . . الواحة التي تعتبر واحات «قرآن» كلها مجرد ظل بائس لها.

أوخيد رأى طيف هذه الواحة في لحظة السقوط في البئر وأخفى السر، فأحرقته الآن أغاني الفتاة بالشوق والحنين والشجن. بكى في قلبه، وحاور الفتاة كثيراً. سألها عن آير والجفاف وآلام الهجرة من تمبكتو. ثم تناظر معها بالأشعار. كانت تحفظ قصائد تفوق عدد شعرات رأسها. . . الشعرات

السوداء المضفورة في جدائل كثيفة ترقد على صدرها النافر.

خطبها من عمها، وحاز على الموافقة.

بعث إلى الوالد يستشير، فأدهشه الجواب: «لا بارك الله لك فيها». هو لم يعرف والده. لم يعش مع والده، ولم يعرفه. كل ما عرفه أن النساء تحتل المرتبة الأولى في حياته. أمه احتلت المرتبة الثانية من بين زوجاته. كانت المسكينة معلولة، ضعيفة البدن والقلب. يذكر وجهها الشاحب قبل أن تموت. مائت بالقلب قبل أن يبلغ السابعة. فأشرفت زنجية على تربيته، وتزوج والده امرأة أخرى من قبائل الأتباع. . . تزوجها قبل أن يتولى المشيخة، ولم ينجب منها ذرية. ولكن غزواته للنساء الأخريات لم تتوقف طوال هذه السنوات. وقد اشتهر عنه ترديده لحديث الرسول: «أحب إليّ في دنياكم ثلاث: النساء والطيب وقرة عيني الصلاة». ويروى له أن يعقب على الحديث: «أرأيتم؟ وردت النساء في أول السطر. النساء رأس الأركان الثلاثة». وعندما كانت القبيلة تقوم بغزوات داخل القارة، كان الوالد يتنازل عن نصيبه من كل الغنائم باستثناء النساء، فيستحوذ على حصته من الزنجيات، ويعود بهن إلى الصحراء، ليتخذهن محظيات. بل إنه تزوج عدداً منهن على سنة الله برغم أنهن مجوسيات، ولم يكن يعرفن الإسلام. ويقال في القبيلة إن سبب منازعاته مع أمه - في تلك السنوات عندما كان طفلاً صغيراً - هو مغامراته مع خلاسية حسناء تقيم في نجع مجاور. وبعد وفاة الأم تولّى المشيخة، ورثها عن خاله الذي مات فجأة. ويروى أن الخال لم يكن ينوي أن يورثه الزعامة لولا مصرعه المفاجيء على أيدي قطاع طرق في صحاري «دبابه». ولم يستطع شيوخ القبيلة مخالفة العرف لمجرد عشق ابن الأخت للنساء. إذ لم يكن عشق النساء في تلك الأيام رذيلة تطعن في رجولة الرجل. بل إن الولد بالمرأة من ميزة الفرسان والنبلاء. وقد دعم الوالد موقفه بترديده للحديث الشريف حول النساء، فقطع الطريق على



رجال الدين، وضمن انقاء شر المتفقيين ومؤيدي الاحتكام إلى الشرع في فصل المنازعات.

تعلم بعض آيات القرآن على يد فقيه أعمى قضى عمره متنقلاً مع القبيلة. ثم توفي الفقيه بوباء الجدري، فاحتل محله الشيخ موسى الذي لم يكن معلمه فحسب وإنما عامله مثل الصديق. ويبدو أن الشيخ موسى لاحظ ميله إلى العزلة وبرود علاقته بالوالد، فتودد إليه، وخفف عليه غياب الأم المبكر. وبرغم الطبيعة الانطوائية التي ورثها عن أمه إلا أن الشيخ الحكيم وجد الطريق إلى قلبه. في المرة الأولى أنقذه من السيل الليلي. سمع البعض الرعد في النهار يهدير في جبال الشمال، ولكن العقلاء كذبوهم، واستبعدوا المعجزة، قالوا: «من رأى مطراً في الصحراء في عز الصيف؟ متى هطلت الأمطار في موسم القبلي؟»، واتهموا الذين أنذروهم بأنهم سمعوا «نداء القيامة»، وتوهموا أنهم يسمعون هدير الرعد. فلم يتحرك أحد للخروج من الوادي، فجاء السيل في آخر الليل، وجرف القبيلة. الوحيد الذي لم يغافله الماء ليلتها هو الشيخ موسى، إذ كان يقرفص أمام خيمته يقرأ أوراده عندما داهم السيل التجمع.

أما هو فنام في المدخل تحت ضوء القمر، واحتمت عجوزه الزنجية بالخباء خوفاً من الأفاعي والذئاب. رأى في الحلم جمرات الموقد تسبح فوق ماء وفيه دون أن تنطفئ، ثم وجد نفسه يسبح بجوار الجمرات المنطفئة، فاختلط الحلم بالحقيقة لما صحا من نومه. الضجة في قمته. العجوز أيضاً تصرخ. نساء النجع وأطفاله كلهم يصرخون. الرجال يصيحون. الماعز يصيح. وهدير الماء يزلزل الأرض. ولكن هذه القيامة كلها لم تنزع من أذنه فحيح الجمر المنطفئة عندما غمره الماء في المنام. وظل هذا الفحيح بضج في أذنيه حتى اليوم. هرع الشيخ موسى والتقط العجوز بيمناه، واختطفه من وسطه بيسراه وقطع بهما الوادي.

وكل ما يذكره من تلك التجربة هو ذلك الهمس الغامض. فحيح الجمر.

- ١٤ -

الشيخ موسى هو الذي توسط بينه وبين الوالد في خلافهما الأول، إذ أراد الأب أن يحصن المشيخة في نسله ويحفظها من الأغراب فقرر أن يزوجه بنت عمته. شقيقة موخامد الذي ينهيلاً لاستلام المشيخة منه. قال له في وصية حملها له موسى إن هذه فرصته الوحيدة كي يحتفظ بينهم بالزعامة. إذا أنجب من بنت عمته ذكراً ضمن الاحتفاظ بالمشيخة في العائلة. ولكن أخت موخامد لم ترد له على بال. فتاة بليدة، مطفأة العينين. لا شر ولا شعر. لا جاذبية ولا مواهب. فتاة عادية ذات ملامح مرضية. ثم إنها لم تخطر له على بال في يوم من الأيام. لم ير فيها المرأة. لم ير فيها الأنوثة، فكيف يجرو ويتزوجها؟ لعن المشيخة، وبعث لوالده بالرفض. سكت الأب على الإساءة ليردّها له اليوم في جوابه القاسي: «لا بارك الله لك فيها». فأحرق بهذا الدعاء قلبه.

لم يكن في حاجة إلى مواعظ الشيخ موسى كي يعرف معنى دعاء الوالدين، فكل فتى في الصحراء يعرف أن السماء تشرع أبوابها كل صباح لاستقبال مثل هذا الدعاء.

ولكن العناد أيضاً ورثه عن أبيه. ورث عنه العناد قبل أن يرث حب الزعامة.

أخذ منه العناد، وترك له حب الزعامة. العناد أنفع لمجاهدة الصحراء.

أما المشيخة فلا يأتي منها إلا وجع الرأس. فلوى العصا في يده واختار «أبور». هرب من العرش، وارتمى في أحضان آلهة الجاذبية، فلن يبحث عن إرث الزعامة من جرب الخلوة مع حوريات الفردوس وشرب من النهر السماوي. عقد على الفتاة المهاجرة، وردد تعويذة أبيه نفسه في حديث الرسول: «أحب إليّ في دنياكم ثلاث: النساء، الطيب، وقرة عيني الصلاة».

اختار الأنثى.

الأنثى نفسها التي كانت سبباً في بلاء الأبلق. والمهري الذي نذره لولي الأولين وتركه في المراعي حتى يسمن ويعقل ويتكامل، كان المهري الذي نحره ليلة العرس.

- ١٥ -

النتيجة: تبرأ منه.

قال للشيخ موسى: «أبلغ الأحق أن أيموهاغ(\*) على حق عندما سنوا النسب إلى الأم، قل له أن يرافقها إلى بلاد السحرة»(\*\*).

ثم حرمه الميراث، فانفصل عن القبيلة. لم يذهب إلى بلاد السحرة لأن الجذب هناك دفع إلى الصحراء الشمالية بمزيد من المهاجرين، ولكنه نزح إلى الأودية السفلية المتاخمة لحدود «فزان». يتجاور مع رحل من مختلف القبائل والمُلل في مواسم الأمطار ويستقر بالواحات في الصيف حتى أنجب مولوده البكر.

في تلك الأثناء شهدت الحمادة الحمراء أحداثاً دموية، إذ نجح الغزاة في كسر المقاومة بالسواحل وتدفقوا في الدواخل عبر الصحراء الشمالية. جاء الرسل لتجميع المقاتلين، فاختلى بالأبلق، وقال له: «وماذا كنت تظن؟ هل تظن أن الحياة أغنية أبدية؟ اعلم أن الفرسان لن يهناؤا بمثل هذا اللقب حتى يعودوا من الحرب. لن يدعي الفروسية من لم يهنا بالحرب. هذه فرصتنا».

(\*) أيموهاغ: الطوارق.

(\*\*) بلاد السحرة: هي كانوا وتمبكتو.



ولكن القدر قوت هذه الفرصة. جاءت الأنبياء بانكسار المقاومة في الحمادة أيضاً و... باستشهاد الوالد. قيل إنه قاوم ببسالة. بل إن أهل الصحراء نظموا القصائد بعدها تمجيذاً لبطولته. ربما لأنهم لم يتوقعوا من رجل مزواج متيم بالسبايا الزنجيات أن يسطر المآثر في مقاومة الطليان. أحد الرعاة أخبره أن الهجوم المباغت لم يفقده السيطرة على نفسه، فطاف على القبيلة، وجمع المقاتلين، وحارب حتى حوَّصر معسكره. طال الحصار فاختلف مع بعض المشايخ الذين هدَّهم العطش وراوا ضرورة التسليم. انفصل عنهم مع عدد من المخلصين. اعتصم بجبل الحساونة حتى مات. مات بالعطش، فاستسلمت القبيلة كغيرها من القبائل. تولى ابن عمته المشيخة بعد انتظار طويل، ولكنه لم يسعد بها، فقد تشتت القبيلة وهاجرت إلى الجهات الأربع. لجأت بعض العشائر إلى غدامس، ولجأت عشائر أخرى إلى «تامنغست»، وعزمت بعض العائلات أن تنزح إلى السودان. ولم يفد سعي الشيخ الجديد لتجميعها. فشل في إقناع الشيوخ بالتذرع بالصبر والانتظار حتى يمرَّ البلاء. وهو لا يزال يتنقل في الصحاري ساعياً لتجميع الشتات كي يمارس مهام المشيخة. آه. لو تشتت كل القبائل في الصحراء الواسعة لاندثرت الخلافات حول المشيخة ولما تقاتل الأشقاء للفوز بالزعامة.

في ذلك الزمان بالضبط، نزل عليهم قريب زوجته ضيفاً. جاء مرافقاً لقافلة محملة بالذهب والعاج وريش النعام. باع ذهبه وريشه وعاجه في غدامس قبل أن يبلغها سبل الغزاة. اشترى بالمال قطعان الإبل، وربط في صحراء «دنبابة» مع بعض الرعاة.

مكث هناك شهوراً ثم استخدم الرعاة في العناية بالإبل، وزارهم في مستقرهم الصيفي في «آدرار». قال إن «أيور» قريبته من أمه، وجاء كي يطمئنها على الأهل. في عينيه رأى أُوخَيْدَ تصميماً يعرفه جيداً. التصميم القاسي في عيون المهاجرين الأبديين: التصميم الذي يخفي أسراراً يعجز

اللسان عن النطق بها.

في أثناء إقامته، لم يصبر أُوخَيْدَ، فافشى سرَّ تعلقه بالأبلق. تغنى أمام الغريب بالسؤال: «هل سبق لك وشاهدت مهرماً أبلق في كل الصحراء؟»، «هل رأيت جملاً في رشاقتة وخفته وقامته؟»، «هل رأيت أجمل منه وأنبل؟». فكان الضيف يتسم بين كل سؤال وسؤال، ويهز رأسه بالنفي. ولم يكن أُوخَيْدَ الغشيم يدري أن الثروة تقود إلى إفشاء الأسرار. وإفشاء السرِّ للغرباء، في قانون الصحراء، يكلف المهاجر حياته.

هذا ما تقوله العجائز نقلاً عن السحرة والعرفان في «كانو».

مكث معهم أياماً في الواحة ثم استأذن للسفر. باع جملاً وناقاة للفلاحين، وتزوَّد بالتمر والشعير، وعاد إلى إبله. وعد أن يعود لزيارتهم عندما تسمح الظروف. وبعد ذهابه اكتشف أُوخَيْدَ أن الضيف ترك له مفاجأة. أخفى له في مطموّره كيساً من تمر وآخر من شعير.

ولكن الكيسين سرقا من المظموور بعد يومين، ووجد فوق المخزن على الرمل إشارة تركها اللص. رسم بحبات التمر مثلثاً واضح الأضلاع واختفى. حار في الرمز، ولجأ إلى عجوز تباوية عمياء تقرأ الغيب. قالت العرافة:

- قلت مثلث؟ هل نذرت شيئاً للآلهة «ثانيت»؟(\*)

انشق رأسه، وقفز كمن طعنه بسكين:

- الآلهة ثانيت؟ للآلهة ثانيت؟

تذكر النذر. تذكر الولي. تذكر قاعدته المثلثة الأضلاع. أكل النذر. أطعمه للعروس. نسيه تماماً. يا ربي، أهي إشارة من الآلهة ثانيت؟ تلك علامتها. مختومة بالنار على سواعد الرجال وتحت سرّة النساء. رآها في العتمة على بطن «أبور» أيضاً. على مقبض السيف وفي وشم التمام، في مقدمة السروج وفوق الجعب والجرايات وزينة اللباس. هي في كل شيء، وفي كل مكان. فهل اختفاء الغرارين تذكير وتحذير؟ اغفري يا ثانيت. اغفري. لقد نسيته. سهوت. لم أتأمل الإشارة في القاعدة المثلثة. كنت غافلاً. كنت مريضاً.

(\*) ثانيت: آلهة الحب والخصب والتأمل عند قدماء الليبيين. وقد اعتنقها منهم البونيقيون فيما بعد. ويرمز لها بمثلث على شكل هرم.



و... اشتد الجوع، وشمل الصحراء كلها.

فبعد نشوب الحرب في السواحل، ارتبكت حركة القوافل إلى الدواخل في أعماق القارة. وتوقف القوافل والتجارة لم يؤثر في السنوات الأولى، ولكن استمرار الحرب صعد الجوع، وجعل الفلاحين يرفعون أسعار الغلال والتمر. وفي الشهور الأخيرة أخفوها في المطامير السرية، ورفضوا البيع أو المقايضة. وقد اختفى الكيسان في قمة حاجته إليهما، فزاده ذلك غضباً وحقدًا على نفسه وعلى النساء.

في ذلك الوقت، كان قادراً على أن يحقق على النساء لأنه يستطيع أن يرى الآن بعينه لا بقلبه كما في الماضي، إذ بردت عواطفه وعاد إليه عقله، فتلاشى السحر، واختفت الجاذبية... تلك الجاذبية التي اعتقد أنها خالدة ورأها طاغية كالقدر الذي شاهده في الوحي في أثناء السقطة، وأيقن أن القرب في الحب هو مقبرة له، والزمن تميمه تبطل سحره وشعره.

والأنثى التي جلبت البلاء للأبلى هي التي دفعته لأن يعد ويخلف، يخلف ويحنث. لم يخلف وعداً في حياته، وها هو يسهو ويفعلها. مع من؟ مع رموز الأولين. مع الآلهة «ثانيت» نفسها. ليت علم أن النصب نصبها وإلا لما نسي، ولكن الحقيقة لا تمثل أماناً إلا بعد فوات الأوان. هذا قانون تردده المعجز دائماً.

أخفى السر عن العرافة، وذهب إلى العراء. جلس حتى منتصف الليل من دون أن يتوصل إلى حل. فطالما لم تأت الذاكرة بالحقيقة إلا بعد سيادة الجوع فمقاومة المكتوب أيضاً كفر. فمن أين له بجمل معافي، قوي، عاقل، في السنين العجفاء؟ كيف يستطيع أن يدبر جملاً وهو جائع وامرأته وطفله مهددان بالجوع أيضاً؟ تذكر كيف شوى مداسه الجلدي وأكله منذ أسابيع في الصحراء الرملية. ذهب يقتني أثر جمل اشتراه سنوات الرخاء

وتركه يرتع في الوادي الفاصل بين الصحراويين: الجنوبية والشمالية. قابل أحد الرعاة وأخبره أنه رآه منذ أسابيع في الشرق. سافر على ظهر الأبلق حتى بلغ «زورزاتين» فقال له رعاة «كيل أبادا» إنهم شاهدوا لصوص الصحراء يقتادون الجمل ويعبرون به الصحراء الشرقية نحو غدامس مع قافلة من الإبل المسروقة لبيعها هناك. وتضاربت الأقوال فأدعى آخرون أن قطاع الطرق أكلوه في مكانه. هام بعدها يائساً جائعاً. لم يذق طعاماً منذ أيام. وبرزم ذلك رفض دعوة «كيل أبادا» لتناول طعام العشاء. الصحراء الرملية لا تعد بشيء. الصحراء الرملية خائنة. عدم. لا عشب، ولا شجر بري، ولا حيوانات برية. صحراء الحمادة جنة بالمقارنة مع هذه الجاحدة. إذا لم تجد شاة غزال أو وداناً(\*) أعطتك أرنباً. وإذا لم تجد أرنباً استضافتك بعظاءة. وإذا كان الفصل لا يناسب ظهور العظاءات دعتك إلى مائدة خضراء بالعشب. وإذا بخلت السماء بالأمطار رحمتك بنين السدر من ثمار العام الماضي. يا إلهي. ما أرحم الحمادة. ولكن الصحراء لا تطعم إلا الرمل والغبار والقبلي.

لم يستطع أن يصمد أكثر، فترع نعله الجلدي. جمّع الحطب وأوقد النار، شواه على النار حتى تلوى وانكمش ثم نهشه بشراهة. كان لذيقاً. لا فرق بينه وبين جلود الإبل التي سبق له أن أكلها كثيراً. تفتحت عيناه بعد الوجبة، وبدأ يبصر خيال الأبلق. خيل إليه أن الجمل يتسم. عيناه تبسمان. يسخر منه. قفز وهدده بسبابته:

- إياك وأن تخبر أحداً بما رأيت! هل فهمت؟ هذا سر.

نزع النعل الآخر، وتفحصه بين يديه. انهار على الأرض. خاطب صديقه كأنه يخاطب نفسه:

(\*) الودان: أو (الموفلون): أقدم حيوان في الصحراء الكبرى، وهو نيس جبلي انقرض في أوروبا في القرن السابع عشر.

- لا تسحر مني فأنا مخلوق ضعيف . ماذا تظن ؟ الفارس أيضاً مخلوق  
بائس ، يأكل نعله عندما يشرف على الموت جوعاً . لا تقسني بنفسك فلم  
يهيني الله مخزناً للماء والطعام مثلك . الجوع يهين أنبل المخلوقات .  
السلاطين أيضاً تركع على الأرض إذا جاعت وترحف ذليلة كالعبيد . فاغفر  
لي . اغفر لي !

بكى ، وتمرغ في التراب طويلاً .

«سمعت سفيان بن عيينة يقول : صاحب العيال لا يفلح . كانت لنا هزة لا تكشف القدور ،  
فلما ولدت كشفت القدور .»

أورده البيهقي  
في «الزهد الكبير»



قفز في الليل مذعوراً.

رأى العرافة تقف فوق رأسه وتطالبه بأن ينحر الأبلق.

مسح العرق وتسلب خارج الكوخ. أطل قمر خجول باهت الضوء، ولكن السكون في الواحة جليل. من غابة التخيل تنهت زغاريد الجنادب الليلية. تمشى في العراء وفكر أن العرافة التباوية غولة. ما رآه ليس حُلماً. إنه خيال غولة تريد أن تأكل لحم الأبلق. أي امرأة تجرؤ أن تأكل لحم حيوان طويل القامة، ممشوق القوام مثل الأبلق لولا أنها غولة نهمة تفتت باللحم الأدمي؟

غداً سيذهب إليها ويذبحها. سيعرف في البداية ماذا أرادت أن تقول بهذا الطلب. فربما كان ذلك مجرد إشارة. علامة. لغة العرافين المجهولة.

عاد إلى الكوخ، ولكنه خشي أن ينام. عندما يرى الإنسان الكابوس في الفراش يخاف النوم.

في الصباح قالت له فلاحه إن العرافة التباوية هاجرت. جاءها ابنها وأخذها معه في قافلة عابرة إلى أغاديس.

رآها بعد ثلاث ليال عقب رحلتها، وقالت له: «لست أنا التي تطلب

رأس أبلقك. إنها تانيت». ثم اختفت. اختفت إلى الأبد.

لم يرها بعد ذلك، فَنسيها بعد أيام. عاد إلى نفسه وتفرغ لمقاومة الجوع. بالأمس ماتت عائلة من زوج وزوجة وثلاثة أطفال. قفلت أبواب الرزق في وجوههم فحبسوا أنفسهم في كوخ ولم يرههم أحد حتى تعفنت الجثث فاقتحم أقرب الجيران الكوخ: وجدوهم مكومين فوق بعضهم. تحللت الأجساد ودبت عليها الديدان. عيون الأطفال جاحظة، فقال إمام الجامع إنهم ماتوا مخنوقين. خنقهم الأب على ما يبدو حتى يمنع صراخهم من الوصول إلى آذان الجيران.

في المساء، قالت له «أبور»:

- إذا لم تفعل شيئاً فبحسن أن نفعل مثلهم. لن نفعل ذلك هنا ولكن في الصحراء. لن يعدم وجود ثلاث رصاصات في بندقيتك.

لم يجبها.

في الصباح، قصد بائع الزيت كي يفترض منه. عرفه سنوات الرخاء وقايض منه الشعير والتمر والسكر مقابل شرائح الغزلان والودان. لن يردّه خائباً. ولكن البائع أقسم أنه لا يملك عشاءه. السمسار ابن السمسار. لا يملك عشاءه. منذ شهور فقط استقبل قافلة من تمبكتو واشترى بضائعها بالجملة. وما لبث أن باع نفس البضائع لتجار غدامس بأسعار مضاعفة. يقال إنه اشترى الحبوب وطمرها في الرمل شرق الغابة وشرع يبيعها للفلاحين بعد اشتداد الأزمة بأثمان خيالية. المرابي ابن المرابية. لقد اشتم رائحة الجوع قبل أن تشتد. عرف أن الحرب ستستمر.

تذكر تلميحتها الخفي. . تحفيرها الخفي. لا تحتقر المرأة شيئاً كما تحتقر الرجل الخائب. . الرجل الفاشل. . الرجل الذي تعتقد أنه فاشل. تناصبه العداء حتى لو كان أقرب الناس. ما أقسى المرأة! يا ربي أين الجاذبية؟ أين الشعر؟ أين الشرر؟ قصد أحد الفلاحين. أقسم أيضاً. في

الزمن العصيب كلهم يقسمون. يحشون. يخفون. الكل يرتعد. الخوف من المستقبل. . من المجهول. . من مفاجآت الحرب.

جلس طويلاً على حافة الجدول ثم انصرف. قطع مسافة قصيرة فأدركه الفلاح. في عينيه تلالآت دمعتان. بسط راحته عن حبات تمر. ثلاث. أربع تمرات. قال:

- هذا من أطفالي. . للطفل. أعرف أن عندك طفلاً.

رفع رأسه، وأكمل موجهاً خطابه إلى السماء:

- يا ربي ما ذنب الأطفال؟

تأمل الحبات الأربع لحظات. انبثقت من عينيه دمعتان أيضاً، أخفاهما بلثامه، وأخفى التمرات في جيبه.

قبل أن يختفي في أحراش النخيل، سمع نداء الفلاح:

- ولكن لماذا لا تبيع المهري؟ هل يجوع رجل يملك مهرية مثل مهريك؟

توقف. خطر له أن يعود ويعيد إليه الحبات. كيف يجرو الوقح؟ هل يريد أن يأكل لحم أخيه؟ هل يظن الأبله أن الأبلق حيوان؟ ندم في أخذه للتمرّات. سيردّها. يجب أن يردّها مقابل الأذية. آه، من الناس. يكرمك بيد ويطعنك بيد. لم يردّها. عجز عن أن يعود. نداء الولد في البيت جرّه وأجبره أن يبيع الإساءة. الولد وُلد معلولاً مثل أمه، نحيلاً، شاحباً، ضعيف القلب والبدن، يسيطر عليه الوجوم. لم يتسم أبداً منذ ميلاده، ولا يعرف سوى البكاء. بكاء الأولاد في البيوت هو الذي يجبر الفرسان على بيع مهاريهم في السوق. هكذا يقولون.

في الليل صعدت من حملتها، دعمت موقف الفلاح من المهري:

- لن نموت ومهري مثله يسرح أمام البيت.



هذا آخر ما توقع أن تقوله . المرأة النبيلة لا تشتهي لحم المهاري حتى لو ماتت جوعاً .

لا يشتهي لحم المهري إلا امرأة . . . أوه . يا ربي . أين السحر؟ أين الشعر؟ أين الشر؟ أين الجاذبية؟  
امرأة وحشية .

سكنت ثم ألحقت بطعنة أخرى :

- لم نأكل سوى البرسيم طوال الأيام الماضية . . كالأغنام .

خنق الألم . لم يفلح . قفز واقفاً ، وقال ساخراً :

- وكيف سنصل إلى الصحراء لاستخدام الرصاصات الثلاث بدون دابة؟

لم يجد لنفسه مكاناً من الغلّ . غلّ على المرأة وعلى نفسه وعلى العيال وعلى الدنيا كلها . الإنسان لا يهنا لحظة واحدة منذ أن يطل من بطن الأم . لا يطوي بليّة حتى يستقبل أخرى . من حرب الجرب إلى حرب الطليان . من ألم العطش إلى عذاب الجوع . ومن تقريع الوالد إلى كراهية الزوجة . من قسوة الصحراء إلى قرحة المعدة . وهكذا بالتناوب . لا تهدأ بلايا الدنيا حتى تبدأ بلايا ذوي القربى .

في الغابة تقياً . دائماً يتقياً عندما يحرقه الغلّ . لم يتقياً طعاماً وإنما مادة صفراء ممزوجة بلعاب لزج . تقياً العلة .

عاد آخر الليل ونام خارج الكوخ .

لم تتبادل معه كلمة طوال يومين .

فشل في الاهتداء إلى حيلة .

ثم دخل قريبها الغريب الواحة . ذهب إلى السوق وقايض جملتين ببعض البضائع . التقى به في مدخل السوق فاهتدى إلى الفتحة الذي يحفظ له ماء

الوجه . الإلهام السماوي أنقذه من الذل . الغرباء لا يفهمون لغة المداينة والاقتراض . لا يفهمونها خاصة إذا كانوا أثرياء . سوف يرهن الأبلق . سيستدين منه جملاً أو جملين حتى تتوقف الحرب ويفرجها ربي . مقابل ذلك سيرهن أجمل مهري في الصحراء الكبرى كلها . لقد رأى البريق في عيني قريب «أبور» عندما حدثه عنه ، وهو بريق لا يلمع إلا في عيون التجار الذين جربوا في حياتهم التعامل بالذهب . بريق الذهب . هل هو الجشع؟ هل هو الرغبة في الامتلاك والاستيلاء؟ قال لنفسه إنه سيكفل رزقاً للعيال حتى يفتح الله ، وسيضمن في نفس الوقت الاحتفاظ بالأبلق .

ولكنه أخطأ في شيء واحد .

أوخيد كان يجهل ما الذي يعنيه لفظ «رهن» في لغة التجار .

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ  
عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾.

القرآن الكريم  
سورة هود / الآية ٦٤.



قبل الوداع ذهب بناجيه. في الصباح استعدّ للطقوس. ذهب إلى الغابة  
وتسوّل حفتة من البرسيم الأخضر كي يرشوه بها. في الليل قال له:

- كما ترى. لا تنجو من فخ حتى نسقط في آخر. ولكن اصبر. لقد  
انفقنا أن السرّ في الصبر. الحياة هي الصبر. جربنا ذلك في الماضي.

ربت على رقبته، فتوقف الأبلق عن المضغ. أضاف:

- في الدنيا فراق أيضاً. الفراق أيضاً يأخذ نصيبه. ولكن لا تخف. لن  
يطول فراقنا. سنلتقي عندما تمر العجاجة ويتوقف الملاعين عن محاربتنا.  
الحرب لن تستمر إلى الأبد.

استولى عليه القلق. احتج:

- أ.ع. . .

بلع اللقمة، ورفض الاقتراح:

- آ.ع - ع.ع - آ.ع - ع.ع - ع.ع. . .

حاول أوتخيد أن يهون عليه:

- هذه ليست أخلاق القرسان. الأطفال فقط يكون. . الأطفال والنساء.  
العقلاء يصبرون. .

تمسح بشيابه، ودس رأسه في كمه الفضفاض.

تعانقا طويلاً في صمت الليل.

في الصباح، انطلق به الغريب. ثبت عليه السرح والجرب والرسن المزدان بخيوط الجلد الملونة. هيئة كاملة. ولكن لم يمتطه. شدّه إلى ذيل جملة الأشعث البشع وانطلق إلى صحراء «دنبابة» والتحق بإياله.

ولكن حتى أوحيد، الذي تربى مع البعير، لم يعرف طبع الحيوان إلى النهاية ولم يفهم ما معنى أن تصادق مهرباً، إذ عاد الأبلق إلى الواحة قبل أن تمضي ثلاثة أسابيع على رحيله. في تلك الأثناء قايض أحد الجميلين مقابل التمر والشعير فسدّ فم «أبور» وعينها أيضاً. وسخر الجميل الثاني في حرث جداول الفلاحين مقابل ربع المحصول. يخرج في الفجر ويعود في المساء متعباً. ينهار وينام كالقتيل. كان سعيداً لأنه يستطيع أن يتعب وأن ينام بعمق. نسي آخر مرة نام فيها بعمق. عاند الأرق طوال زمن الجوع. الجوع يسرق النوم. ليس الجوع الذي يسرق النوم ولكن العيال. . . الولد. . . المرأة. أما الآن فيغيب بمجرد أن يستلقي. لا يغيب بهذه السرعة بسبب التعب ولكن لأنه استطاع أن يسدّ فم المرأة وعينها. هذا يسعده، في نفس الوقت يزعجه. يحس بقلق خفي. ربما لأن في ذلك إشارة. وهو يخاف الإشارات. الصحراء علّمته أن يتيقظ للإشارات. قالت له إنه ليس في الحياة شيء يمكن أن يعادل الإشارة عندما تتجاهلها أو تغفل عنها.

الإشارة هي القدر.

هكذا قالت الصحراء.

وكأي مخلوق أتعبه الاستنفار الطويل، استرخى بمجرد أن توارت البلية خلف الربرة الرملية فكان في ذلك غفلة. البلية تعود مع الاسترخاء وتتسلل في الغفلة. إذا عجزت أن تأخذك في عراك النذّ للند توارت لتطعنك من

الخلف عندما تستدير وتعطيها ظهرك.

هذه تعاليم تعطيها الصحراء للرعاة مجاناً كل يوم، ولكنها تتخلّى عنهم بمجرد أن يسكنوا الواحات ويتناولوا في الزراعة.

وهذا ما حدث مع أوحيد، فالسيف الذي لا يستعمل طويلاً يعلوه الصدأ، فالواحة زينت له الاسترخاء في شيء يسميه الفلاحون: الراحة. الراحة تخفي الاسترخاء، وفي الاسترخاء يكمن الصدأ. مع آذان الديكة أيقظته المشاجرة.

في سكرة النوم سمع صوته الغاضب. أطل من الكوخ، فرأى في العتمة شبح جمل ينازع جملة ويهاجمه بالأنياب. خرج وهو يفرك عينيه. الأبلق. إنه الأبلق، بقّده وقامته وقوامه، تمكّن من غريمه ولحق فأدّى رقبتة وحنكه الأيسر. في الصباح عثر على عضات أخرى متناثرة على جسم الجميل وجرح بليغ أسفل الصدر.

بعد يومين، وصل أحد الرعاة وقال إن «دودو» بعثه في أثر المهري الهارب. كان فيه خالياً من الأسنان. وبرغم ذلك لا يتوقف عن الضحك ومضغ التبغ. جلس تحت نخلة واطّنة ظليلة في الحقل وأخرج صرة من جيبه وقال:

- الحمد لله الذي أعطاني عمراً حتى رأيت التبغ برخص التراب. هل تصدّق أن فلاحاً في مدخل الغابة أهدى لي حفتين مجاناً؟

ضحك مستلقياً إلى الوراء، فظهرت لثته المهجورة ثم أكمل:

- الحرب جاءت بالجوع ولكنها ضربت سعر المضغة. هذا من فضل الحرب. في السواحل لا يدخنون الآن سوى التبغ الملفوف. هل جربت التبغ الملفوف؟



- أنا لا أمضغ التبغ.

- آه. اعذرني فأنا رجل مدمن. المضغعة فوق كل اعتبار. أستطيع أن أجوع، ولكن الحياة بدون مضغعة مستحيلة. أقتات الأعشاب في الصحراء شهوراً وسنوات ولكن لا أعيش يوماً واحداً بدون مضغعة. أمثالي يرتكبون الجرم إذا لم يحصلوا على التبغ. هل سمعت بقصة المهاجر الذي رفض الفلاحون أن يعطوه تبغاً. قتلهم الثلاثة. قتل ثلاثة رجال بسبب ورقة تبغ. إنه الجنون. أنا أفهم ذلك.

ثم عاد يضحك.

في الليل، حدثه عن الجوع في الصحراء. قال إن عائلات بأكملها ماتت ودفنت في مقابر جماعية، خاصة في السنة الأخيرة. في الصحاري الجنوبية نزلت أمطار شحيحة، فحلّ الجذب مبكراً مع الصيف القاسي. الناس نزحت عن المراعي الخصبة في الشمال هرباً من رائحة البارود. الأطراف الشمالية للحمادة الحمراء خالية هذا العام.

سأله أوخيد:

- هل هناك ما يشير إلى أن الحرب ستنتهي؟

- الأحداث تشير إلى العكس. منذ أسابيع طاف رسل المجاهدين لتجنيد المقاتلين، يريدون دعم صفوفهم في الكفرة وبعض مناطق الجبل الأخضر.

سكت. عم الصمت. قال بنبرة كثيفة:

- لا يبدو أنها ستنتهي في القريب.

سرحا في أفكارهما. سرحا بعيداً. ثم قال الراعي ضاحكاً:

- ولكن مزية الحرب أنها أطاحت بسعر التبغ. أنا لا يهمني الجوع ولكن بوجود المضغعة أضمن أنني لن اضطر إلى القتل كما فعل المهاجر.

ضحك، فقاطعه أوخيد:

- ولكن دعنا من هذا الآن. حدثني عن الأبلق. كيف حال الأبلق هناك؟

- أووه. إنه ليس جميلاً. إنه إنسان في جلد جمل. طول عمري قضيته مع الجمال ولكني لم أر مثيلاً له. عندما جاء به «دودو» أضرب عن العشب ورأيت الحزن في عينيه. حزن الحنين. من طول معاشرتي للبعير عرفت أنه يحن إليك. هذا ما تتميز به السلالات النادرة. هل تدري أنه رفض حتى أن يترك؟ ظل واقفاً على ساقه طوال الأيام الماضية. قيدته في مرعى مجاور فقطع القيد وعاد إلى هنا. أدركناه بعد مطاردة قاسية وأعدناه إلى المراعي. في هذه المرة صنعت له عقلاً من الليف بدل عقال الوبر. سامحني في قسوتي ولكن لم أجد حلاً. هل تعلم ماذا فعل بعقال الليف عندما عجز عن قطعه بقوة الساقين؟ مضغه بأنيابه حتى انقطع القيد وفر، فلم ندركه أبداً. هذا ليس جميلاً. إنه إنسان...

قال أوخيد في الظلمة:

- قلت له إن الصبر هو التعويذة الوحيدة ضد البلاء. أضاع الحجاب.

- لم أفهم.

همهم أوخيد بكلمات غير مفهومة، فقال الراعي بلهجة خفية:

- لا أعرف كيف طاوعتك نفسك فرهنته. مهري مثله لا يرهن أبداً.

أجابه أوخيد في سره: «العيال. المرأة. ماذا تعرف عن العيال وعن المرأة؟»

وحسد الراعي الطليق الذي لا يفكر إلا في حفنة التبغ. كان طليقاً مثله لا يفكر حتى في التبغ. يتنقل مع الأبلق في صحراء الله الواسعة. ولكن هيهات. جاءت حواء ففرقته عن القبيلة وعن الأبلق. المرأة. المرأة. ألم يقل الشيخ موسى أنها هي التي طردت آدم من الجنة؟

عاد مرة أخرى بعد أقل من شهر فجاء في أثره نفس الراعي .

في عودته الثالثة، ذهب به إلى الفقيه ليكتب له حرزاً، فقال الفقيه بعد أن سمع قصته:

- أنا لا أستطيع أن أمحو الذاكرة. ابحث عن غيري .

نصحوه بالسحرة الزوج، ولكن العرافة التباوية التي هاجرت قبل المجاعة بوقت قصير كانت آخر من تعاطى الرقية في الواحة. لم يطمع في اصطلياد سحرة «كانو» المرافقين للقوافل لأن الحرب ضربت حركة القوافل نفسها.

اختلس حفتين من الشعير في غياب «أيور»، وقرر أن يذهب بنفسه إلى «دبابه». اختلى به في الطريق وبدأ في تأنيبه:

- ألا تعرف أنك تتعبني؟ أنسيت ما قلته لك؟ لقد اتفقنا أن فراقنا مؤقت، ولكنك نسيت الحجاب. . . نسيت الصبر فأضحكت علينا الناس .

تلاأت عيناه بالبلبل، ولكن أوحيد لم يرحمه:

- تجري ورائي كالكلب. الكلاب فقط تفعل ذلك. افهم أن هذا لا يليق بالفرسان .



ثم خفف من لهجته :

- سوف تنتهي الحرب قريباً، وتعود حياتنا كما كانت. لا شيء يدوم.  
اصبر. لا شيء يستقيم بدون صبر وبدون حيلة. سبق واتفقنا.

أخرج له المفاجأة. طرح الشعر على غطاء أمام المهري في العراء.  
ولكنه أشاح بوجهه. تأفف وتعلق بالأفق.

عرف أُوخيد أن الخطاب لم يرق له. ثم بدأ يمزغ دون أن يجتر شيئاً،  
فاستحلب زبداً ناصعاً منقوشاً. لوث وجهه وذراعيه بنثار الزبد فعرف أنه  
يغلي. إذا أكله الغضب والانفعال تقياً كتل الزبد.

أحكم الوثاق حول قائمته الأماميتين. ثنى كل ركة على حدة وقيدتها  
بحبل الليف حتى لا يفلت في الليل ويهاجم الجمل الآخر. ففي كل مرة  
يعود فيها من منفاه يتجه إلى غريمه وينهشه بقساوة.

تركه وعاد إلى الأمتعة. توسد ذراعه وحاول أن ينام.

ليلتها أُوخيد لم ينم.

طوال الليل أنصت لانفعالات الأبلق من خلال مضغه العصبي للفراغ  
والزبد الأبيض. ف... قرر أن يسترده بأي ثمن.

لم يتخذ القرار فجأة إذ أنه لم يعد يستطيع أن يصبر على الفراق. بل إنه  
استغرب كيف سمح لنفسه أن يفعل ما فعل. وأدرك الآن، وهو يستلقي في  
العراء الأبدى، أنه لن يغفر لنفسه الخطأ إذا لم يسترده في هذه الرحلة.  
فالبلاء الذي وُحد بينهما في الماضي وختم على حياتهما برباط أبدي أقوى  
من المجاعة التي تحاول اليوم أن تقطع هذا الرباط.

إذا كانا في رحلتهم الخالدة تلك - من مضارب القبيلة إلى «قرعات  
ميمون» ومن «القرعات» إلى البشر، ومن هاوية البشر إلى فوهته مرة أخرى -

قد اشترى حياتهما بذلك الثمن القاسي، إذا اشترىها بألم لا يعادله إلا  
الموت، إذا اشترى الحياة بالموت وبعثاً من جديد، فكيف يسمح اليوم أن  
يخون هذه الهبة الإلهية التي ربطت مصيرهما، ويبيعها بسبب العيال أو  
المجاعة؟ ماذا يمكن أن يسمى هذا غير الخيانة؟ كيف أعمته المرأة إلى  
الحد الذي أعماه عن رؤية عمله البشع؟ نعم. هي. المرأة. لولاها لما  
تجاسر. لولاها لما سها عن الإيفاء بالنذر لـ «تانيث». لولاها لما حلت  
اللعنة التي أعمته عن رؤية فعله. لولاها لما جاء الولد إلى الدنيا. الولد  
الذي يجيء كي يطوق عنق الوالد ويديه ورجليه بقيد أقوى من الحديد. لا  
يطوق أطرافه فقط وإنما يشل عقله ويحجب قلبه. الأبناء حجاب الآباء.  
الأبناء فناء الآباء.

«حياة العاشقين في الموت، ولن تملك قلب الحبيب إلا بفقدان قلبك».

جلال الدين الرومي

«المثنوي»



من أفواه الغرباء تسمع العجب .

في البداية، قال له :

- عرفت أن هذا سيحدث . رأيت هذا في عينيك وفي عينيه .

- البلاء صنع منا مخلوقاً في اثنين ، فأرجو ألا تستغرب قلبي : ليس من حقي أن أبتعد عنه .

- لماذا لم تقل ذلك عندما لدغك الجوع ؟

- لست أنا الذي جعل من بكاء الأبناء سبباً لجنون الآباء .

- لست أنا أيضاً .

- الأمر بين يديك . لن تنسى أنه أخرجني من البئر . وهبني الحياة . ضع نفسك مكاني .

سكت طويلاً ثم قال :

- غداً سأبعث لك بجوابي .

وفي الغد سمع العجب .

لم يسمعه من فمه مباشرة، ولكنه بعث به مع رسوله . نفس الراعي

المرح ذو الفم الخالي من الأسنان. جلس يخلط شاي العشية، وقال ببلاهة الرعاة:

- يعيد لك الأبلق بشرط أن تطلق قريبته.

هكذا بدون حياة. وبدون إيماء. لم يكلف الراعي نفسه عناء الإيماء. لم يظن أنه أبله إلى هذا الحد.

في البداية لم يفهم أوخيد، فأعاد الراعي توصية مخدومه مثني وثلاثاً.

قال أوخيد بعد صمت طويل:

- وما علاقة هذا بهذا؟

- ما دام يشترط فلا بد أن هناك علاقة. لا يعلم بنوايا الغريب إلا ربي!

- وهل يضع المسلم شرطاً هو أبغض الحلال في الشرع؟

- إذا وجد السبب فلا مكان للإسلام ولا للشرع.

- لو كانت بندقيتي معي لما جرؤ أن يبعث لي بهذا الشرط.

- حتى لو كانت بندقيتك بين يديك فلن تفعل شيئاً. جند العسس بماله

وجاء له الذهب بالخدم والحشم والعبيد والرعاة. هو أقوى منك والأبلق بين يديه.

أعطاه الراعي فنجان الشاي، وقال بنفس الخشونة:

- ما كان ينبغي أن ترهن له هذه الجوهرة. لو رهنتها لي أيضاً لفكرت في

حيلة شيطانية كي أسلبه منك.

ابتسم بغموض ورشف الشاي:

- تتعامل مع الغرباء كأنهم أقران. لا يتغرب المرء بلا سبب. في صدر

الغريب دائماً يرقد السر.

لم يرشف أوخيد من الشاي. ترك الفنجان مغموراً في الرمل، وأنصت لفقااعات الرغبة وهي تنقشع وتتلاشى. صوتها كان واضحاً من فرط الصمت.

قال الراعي:

- الحق أنه أخبرني بشيء آخر لم أر ضرورة في أن أخبرك به.

شجعه أوخيد:

- تستطيع أن تتكلم، فلن يدهشني شيء كما أدهشني شرطه.

- من الغريب يأتي الغريب. لا تستغرب.

رشف من الفنجان بصوت مزعج قبل أن يكمل:

- يريد أن يتزوجها على سنة الله ورسوله.

وجه له أوخيد نظرة استنكار، فأسبل الراعي جفنيه. قال متظاهراً

بالاعتناء بالكؤوس:

- يتزوج قريبته. قال إنه سيفعل ذلك على سنة الله ورسوله. ليس في

ذلك أي عيب.

صاح أوخيد:

- ولكني أحبها. من قال له إنني لا أحبها؟

- هو أيضاً يحبها. هكذا قال. والأقربون أولى بالمعروف. هكذا قال

أيضاً.

- لو كانت بندقيتي معي..

- لن تفعل شيئاً. الحرس والعسس. الخدم والحشم. اشترى كل شيء

بماله.. بذهبه.



- لعنة الله عليه وعلى ذهبه. وهل يظن أنه يستطيع أن يشتريني أنا  
ويشتري زوجتي بذهبه؟

- لقد اشتراك في اليوم الذي رهننت فيه الأبلق. أما زوجتك فيستردها  
منك. هو أقرب لها منك. صلة الرحم. يستردها منك ويعود بها إلى آير.  
على سنة الله ورسوله. ليس في ذلك ما يمكن أن يغضب الله أو العباد.  
هل قال إنه سيعود بها إلى آير؟

- نعم.

- وماذا عن ولدي؟ الولد ولدي.

- سيعيش بين يديه مثل ابنه، في أرغد عيش، إلى أبد الآبدين. وإذا  
شئت استردته عندما يكبر. هكذا قال. لم يهمل شيئاً في الوصية كما ترى.  
ألم أقل لك إن الغرباء يخفون الأسرار؟

- سأقاتله، وسأسترد الأبلق بالقوة. إذا غاب الحياء بالقوة هي قاتلون  
الصحراء. أنت تعرف.

- لن تنفع القوة. هو أقوى منك بماله ورجاله.

- لا تنس أن لديّ قبيلة. أقوى قبيلة.

- قبيلتك شتها الطليان. وهو يعرف ذلك. ويعرف أيضاً أن المرحوم  
والدك لم يكن راضياً على زواجك من قريته. ردد على مسمعي تلك  
اللعنة: «لا بارك الله لك فيها». لا أدري من أين سمع. ولكن لا شيء  
يخفى حتى في الصحراء كما ترى. ألم أقل لك إن في صدره يرقد السر؟

بعد لحظات، سمع أوخيد عجباً آخر.

حجبت الظلمة امتداد الأفق، فقال أوخيد:

- فاتي أن أسأله عن صلة قرابته بها. فاتي أن أسألها أيضاً.

سارع الراعي:

- ابنة عمه!

- ابنة عمه؟

- نعم. عشقها منذ أن كانا طفلين. اختلف الأبوان فافترقا. ومن الطبيعي  
أن يرفض أبوها زواجها منه. وعندما مات الأب وهاجرت قبيلتها إلى «أزجر»  
كان «دودو» أسيراً عند قبائل بامبارا. ذهب في غزوة لسلب الذهب فوقع في  
كمين. ولكنه استطاع أن يدبر طريقة للهروب بعد سنوات. فعاد إلى آير  
ووجد أنها قد هاجرت. جمع أتباعه وأغار على «بامبارا» وغنم الذهب  
اللعين. باعه في غدامس وأنت تعرف بقية القصة. قال إن هدفه من  
الحصول على الذهب هو تأمين المهر. هذا جانب من السر. أما ما خفي  
فالله به أعلم.

تمايل أوخيد كمجاذيب الطريقة. قال مأخوذاً:

- حقاً لا يتغرب المرء بلا سبب. حقاً أن في صدر الغريب يرقد السر.

لم يمض على عودته إلى الواحة أسبوع واحد حتى التحق به الأبلق.  
جاء هذه المرة في أسوأ حال. لم يره بهذه الحالة قبل اليوم. ازداد  
ضموراً حتى برزت ضلوعه. غارت العينان في المحجرين. القائمتان  
الأماميتان غائرتان بجروح عميقة سببتها قيود الليف. أخشن أنواع  
الليف. الليف الوحشي. وبدل سيماء القبيلة (+)، وسموه على فخذه  
الأسير بسيماء قبائل آير (+ ١١).

هذه إشارة من دودو. دودو داهية. هذا استفزاز. يريد أن يقول له إن  
المهري لم يعد ملكه. ومجرد إطلاق الجمل في أثره إشارة. يريد أن يحرق  
قلبه. إذا غاب الحبيب سهل عزله. سهل حجه عن القلب. البعيد عن  
العين بعيد عن الخاطر. إذا رأيت المحبوب استيقظ الشوق. هذه حيلته.  
هذه حيل الغرباء. الراعي على حق. قلوب الغرباء مأوى السر. عندما  
ودّعه قال له: «ما كان ينبغي أن ترهن مثل هذا المهري لدى غريب. فمثله  
يخفى عن أعين الغرباء. ولكن ما فات مات»، وبصق لعاب التبغ على  
الأرض ومضى كي يلتحق بالابل.

ظن أنه لن يرى هذا الراعي مرة أخرى. ظن أن الرجولة تكفيه كي يغادر  
«دنيابة» إلى الأبد بعد شرط مخدومه المجنون. شرط مخجل مجنون من  
رجل مجنون غريب المزاج. عندما جاءه أول مرة في الواحة ونزل ضيفاً







كي يجرب به الرجال من رقابهم . ومن هو الولد؟ إنه اللعبة التي يتلهى بها الأب معتقداً أن فيها الخلود والخلوص في حين تحمل فناء عمره وخواب ماله . وما هو العار؟ إنه وهم آخر اختلقه أهل الصحراء كي يستعبدوا أنفسهم ويكبلوا رقابهم بمزيد من القيود والحبال .

وإذا كان العار هكذا فإن النبيل هو الحرية ، هو الإخلاص لرفيق عرفه في الفناء وعبر به ملكوت الصحراء طوال هذه السنوات . والنبيل هو الذي يحتم عليه أن يضحي بالوهم واللعبة والوهم ويختار الأبلق ليواصل معه الرحلة في ملكوت الخلاء .

شدّ اللجام فجأة ، واستدار على عقبه .

استقبله دودو مع الشروق ، يرتدى قناع الكتان ، ويحاول أن يخفي قلبه أيضاً بالقناع السري . ولكن عينيه فضحتا محاولته . رأى فيهما سخرية الواثق من كسب الرهان . برقتا في لحظة بابتسامة ذات معنى ثم اختفت الابتسامة . كرهه في تلك اللحظة . الإحساس بالكراهية كان خاطفاً أيضاً مثل الابتسامة الخفية . واستغرب أنه لم يحس نحوه بكراهية قبل الآن . غضب فقط عندما قصّ عليه الراعي الوصية ولكنه لم يكره ولم يحقد . ربما لأن الراعي الحكيم نجح في إقناعه بأن الخطأ يكمن في «الرهن» . حدّثه طويلاً عن المعنى السحري لهذه الكلمة بين التجار . قال له إن دودو نفسه وقع في مصائد كثيرة نصيبها له تجار تمبكتو وأغاديس وغدامس قبل أن يهتدي ويعرف معناها .

الآن هو أيضاً يعرف معنى هذه اللعنة . وهذه المعرفة هي التي امتصت حقه على دودو ليقبله على رأسه . فهو المسؤول عما حدث . المجاعة مسؤولية . آيور مسؤولية . الولد . الطليان . الصحراء . يا ربي . عندما يدبر القدر أمراً فإنه يجعل كل شيء مسؤولاً . يجعل كل شيء عدواً . الناس والأشياء والصحراء . هذا من شيم القدر الأعلى . عندما يقرر بضع

المسؤولية على عاتق الجميع لكي لا يكون أحد مسؤولاً . عندما يشترك الجميع في جريمة فليس ثمة مجرم . القدر أمهر من يمحو الأثر ، يوزع الخطيئة لكي يستحيل الاهتداء للفاعل الحقيقي .

هذا الإحساس جعله لا يكتن حقدًا لدودو . جاء يلاحق ابنة عمه التي أحبها منذ الصبا وحالت بينهما تدابير الدهر ، فهل يملك الحق في أن يدينه؟ هل يعاديه ويقاتله لو كان هو مكانه؟ .

قال دودو :

- عدت كي تطمئن على الزرافة؟ .

استغرب أوخيد :

- زرافة؟

- نعم . هكذا سميته . الزرافة أجمل حيوان في آير .

ثم طلب منه أن يسمح له ليلقي عليه نظرة . هز دودو رأسه وردد :

- هذا كله لن يفيد . ستضطر للعودة إليه مرات ومرات .

لم يغضب أوخيد ولم ينطق ، فتمتم الغريب :

- هو في المرعى بالوادي الغربي .

الآن فهم . نسيم الصباح هبّ من الشرق . فلم يكن صعباً على الأبلق أن

يشم رائحته عندما انطلق هارباً .



كما تنقشع أحلام الليل بالنهار، كما تبتلع أشعة الشمس قبس الفجر، تبدد القسم بمجرد أن رأى دودو متدثراً بعباءته الزرقاء في المدخل. عرف لحظتها أن الإنسان مجبول على ما رضعه في حليب الأم. عرف أن من الصعب أن ينزع الوهن واللوعة والوهم من رأسه مرة واحدة إلا إذا أصبح إنساناً آخر مرة واحدة أيضاً. الإنسان رهين ما كسب كما هو سجين البدن. هكذا يروق للشيخ موسى أن يردد. فهل يعني بذلك أن الإنسان يعجز أن يبدل نفسه طالما يعجز أن يغير بدنه؟ ولكن إذا كانت المرأة وهماً والولد دمية والعار وهماً فهل يرضى بأن يسلم لهم نفسه ويبيع الأبلق؟ هل يرهن نفسه في قبضتهم بمجرد أن كل الناس تفعل ذلك ويتخلى لهم بالمقابل عن صديق الدنيا والدين؟

هل يرتكب هذه الخيانة دون أن يحتقر نفسه؟

لم يكذ يفتيق من حساباته وهو ينزل الوادي حتى هرع المهرى إليه، مقيد القائمتين الأماميتين، يلوك الزبد، وينز العرق من جسمه. في عينيه حزن. الحزن الذي يعرفه جيداً. أوقف جمل الحرث بعيداً، وهبط المنحدر. تعانقا.

ولكن عناق الوداع دائماً أقسى.

تعمد أن يقسو عليه:

- هل أنت ذكر أم أنثى؟ ما تفعله لا يليق بالمهاري. ليس رجولة. ليس  
فروسية. أفهم؟ اصبر. مائة مرة قلت لك اصبر. هذا هو الحجاب إذا أردت  
أن تعيش في الصحراء. الصبر صلاة. الصبر عبادة. هل نسيت رحلتنا إلى  
«قرعات ميمون» هل نسيت رحلتنا إلى «أوال»؟ أنت تنسى بسرعة. هذا  
عيبك. هذا يجر متاعب في الصحراء.

قلب الجمل لم يلن. ظل القلق يقفز من مقلتيه الرائعتين. مقلتيه  
الناطقتان كعيني غزال.

ظل يناجيه ويداعبه ويعزيه حتى انتصف النهار. وما أن انصرف حتى  
اشتكى بصوت كأنين المرضى.

كل الأصوات التي سمعها من الأبلق لا تشبه أصوات الجمال الأخرى.

- ٢٣ -

وها هو يلتحق به.

جاء متخناً بالجراح، يحمل وصية جديدة من دودو الداهية. وصية  
قاسية. هذه الجراح وهذا البؤس هما الوصية الجديد. هذا الهيكل العظمي  
التعيس هو رسالة دودو. تنبيه. إنذار. إشارة. آه من الإشارة. ما أكثر ما  
يخشى هذه اللغة. اللغة الخفية التي تعلمها من الصحراء. الصحراء هي  
التي علمته أن يخافها. لأنها لا تنطق بصريح العبارة. لأنها تخفي  
المجهول. لأنها المجهول. والمجهول لا يوميء عبثاً. المجهول لا يعرف  
المزاح. المجهول هو القدر. ولغة القدر مميتة.

فهل يريد الغريب أن يقتل الأبلق أم أن هذا مرحلة جديدة من الابتزاز  
القاسي؟ هل ينوي أن ينتقم من الحيوان البريء مقابل مكابرتة ورفضه  
التسليم بتطبيق قريته أم أن هذا التعذيب هو أسلوب لتطويعه ودفعه إلى  
التسليم؟

مهما فكرت، ومهما حكمت العقل، ومهما سرحت في التأويل، فإن في  
جعبة الغرباء أسراراً أخرى. مهما كنت عالماً، ومهما وهبت من ذكاء فإن  
سلاحهم أقوى لأن المرء لا يتغرب بلا سبب. الراعي الحكيم على حق.

في تلك المرة عندما جاء الأبلق ممزقاً، أعجف، بارز العظام رأى في



عيني أيور لأول مرة طوال عشرينهما احتقاراً. لا. لا. لم يخطئ. نظرة احتقار واضحة. لم تخفها. لم تحاول أن تخفها. تعمدت ألا تخفيها عن قصد. فما معنى ذلك؟ هل استيقظت الغيرة؟ غيرتها من الأبلق ليست وليدة اليوم، فهذا الفرس البهي الذي استكمل به فروسيته قبل الزواج فساهم في تعلقها به أصبح، بعد الزواج، ضرةً وغريماً، بل عدواً. لم تجرؤ على إعلان مشاعر ما نحو الحيوان صراحة ولكن لم يكن صعباً عليه أن يفهم هذا الموقف من إيماءاتها الخفية.

قالت له بعد العشاء عقب الزواج بشهور وهما ما زالا يقيمان في الحمادة:

- لم أر في كل الصحراء نساء غيورات مثل نساء قبيلتكم. أتدري أن «تازيديرت» قالت لي: «احذري. الرجل الذي يحب مهرية، كما يفعل أوخيد مع أبلقه، لا يعول عليه. هو حقاً أجمل مهري في الصحراء، ولكن إذا زاد حب الفارس لفرسه فليس من حق الزوجة أن تأمن هذا الفارس. فقلبه إما مع فرسه وإما موزع بين امرأته وفرسه وهذا أسوأ. والمرأة ما لم تحتل مكان المهرية في قلبه فإنها تبقى مهددة بأن تفقده يوماً». فهل سمعت بمثل هذا الهراء؟

ضحك يومها، وقال لها أن «تازيديرت» امرأة حكيمة ولم تقل سوى الحق. ضحكت أيضاً، ولكنها لم تغفر له هذه الدعابة.

وما أن بدأت المجاعة حتى وجدت الفرصة في التخلص من المهرية، ولمحت أكثر من مرة بذلك. ثم لم تستطع أن تصبر على نواياها فصرحت بذلك علناً. غفر لها، وقتها، لأنه رأى ما فعله بهم الجوع، وقال لنفسه إن من حق الأم أن تجنّ وهي ترى وليدها يبكي جوعاً.

وغيرتها الآن ليست بسبب تعلقه بالأبلق، ولكن لأنها رأت صراعه منذ أن رهنه لقريبها. رأت الكرّ والفرّ بين «دنيابة» والواحة، وتابعت الرحلات إلى

هناك والعودة. ورأت في ذلك خزيّاً يستوجب الحياء. ونظرتها اليوم قالت له: «استح! ألا تحجل؟». وهدف هذا التوبيخ الخفي ليس غيرة الزوجة من فرس الفارس ولكن رأت في عناده وصراعه وتمسكه بالحيوان خطراً عليها. هي والولد. فهمت ذلك بحاسة المرأة، بوحى المرأة. وهل ثمة أكثر من المرأة حساسية ووحياً عندما تشك؟ ونظرة اليوم إنذار. تحذير. تحذّر. كراهية. نعم. في الاحتقار برقت الكراهية. وماذا يمكن أن تعني الكراهية إلى جانب الاحتقار؟ في الاحتقار كل الرذائل. الاحتقار أقوى وأقسى من الكراهية. الاحتقار إهانة. هذا ما رضعه من ثدي الأم. من ثدي الصحراء أم أن. أوه، يا ربي! أم أنها تحب ابن عمها حقاً وتتعمد أن تهينه حتى تفوز بورقة الطلاق؟ هذا الهاجس ضاعف شقاءه، وتذكر أنها أخفت عنه صلة قرابتها به طوال الوقت. لماذا لم تخبره بالقصة كلها إذا لم تكن تخفي سرّاً؟ أوه، يا ربي! المرأة. المرأة. ها هو الوهن الفظيع يضيق حول الرقبة، ها هو يكتم النفس. ها هي الظلمات تزحف وتبتلع ضوء النهار. في تلك الليلة، بكى أوخيد.

لم ينم. وفي قلب الليل، وجد أن خيطين حارقين من الدموع يسيلان على وجنتيه.

لم يصدق أنه يبكي أو يمكن أن يبكي في يوم من الأيام. سليل اخنوخن العظيم(\*) يبكي في فراشه كأنه أنثى. أوخيد الذي تعاند في صباه مع قرين أيهما يصمد أطول مدة وهو يمسك بجمرة موقدة. فاحت رائحة الشياطين من يديه دون أن يتخلّى عن قطعة النار حتى انهار خصمه وألقى بقطعته وهو يصيح. أما هو فلم يصرخ ولم يبك برغم أنه طفل لم يبلغ

(\*) اخنوخن: زعيم أزجر. شيخ قبيلة المنغسان في القرن التاسع عشر. لعب دوراً رئيسياً في صد الغزوات الفرنسية التي كانت تستهدف التوغل في الصحراء الكبرى والسيطرة على نجارة القوافل. مات عن عمر تجاوز المائة عام.



العاشرة. قبلها، في السابعة، عاقبته أمه فأطلقت عليه الزنجية كي تملاً فتحتي أنفه بسائل الفلفل الرهيب فصبت عدة ملاعق. غاب في الظلمات وانسد النفس ولكنه لم يبك.

حرث الصحراء معلقاً في ذيل الأبلق، وقفز في الهاوية الظلماء، ومات وعاد إلى الحياة، ولم يبك.

وها وهو يبكي الليلة دون أن يستطيع أن يوقف نفسه عن البكاء، كأن الذي يبكي ليس هو وإنما إنسان آخر ينام بجواره، ينام فيه ويشق عصا الطاعة عليه، يتمرد على حواسه وإرادته. إنسان آخر يرى نشاطه وأفعاله دون أن يراه. ما معنى هذا؟ هل حدث هذا لإنسان في الصحراء من قبل؟

انسل من الفراش، وخرج من الكوخ.

في الخارج، شق قبس الفجر ظلمات الواحة، ولكن الديكة غفلت عن إعلان الميلاد أوروبما تعمدت أن تكتم السر. فرقة الجنادب وحدها واصلت أغاني السهرة.

الأبلق أيضاً قضى الليل ساهراً. وجده منتصباً بقامته المديدة، متجهماً برأسه نحو الشرق، بائساً، صامتاً، كئيباً، يشاهد ميلاد القبس، في حين برك جمل الحرث في الطرف الآخر من الكوخ، بجوار نخلة حدباء كثيفة، يجتر ببلادة ولا مبالاة. قارن في لحظة بين الجميلين، فأدرك كم يبدو حزن الأبلق مقدساً في هذا الوضع، في هذا الوقت المبكر من الصباح. وكم يبدو الجمل الآخر غيباً وبشعاً في بلادته ولا مبالاته وخلوّ باله من الهم. ما أبشع المخلوق عندما يخلو قلبه من الهم. الحزن وحده يزرع القبس الإلهي في القلب. هل يبدو الإنسان هكذا أيضاً؟ الشيخ موسى يقول دائماً أن الله لا يحب إلا المعذبين والمبتلين من العباد، بل هو لا يتلي إلا من أحب. شيوخ الطريقة في الواحة أيضاً يرددون شيئاً مشابهاً.

اختلس ثلاث حفنات من الشعير من زاوية الكوخ، وامتنق البندقية، ووضع الرسن في خشم المهري. قاده عبر طريق عين الكرم.

في الطريق، وجد نفسه يردد كأنه يغني: «الصبر صلاة. الصبر عبادة. الصبر هو الحياة». طمأن نفسه وهو يردد ذلك كي يسمعه الأبلق. قال في نفسه أنه يوجه أغنيته إلى المهري المعذب، ولكنه في سره يعرف أنه يقول ذلك لنفسه هذه المرة. الإنسان الآخر الذي بكى في الليل واكتشف أنه يقيم في بدنه هو الذي يرتل هذه التيمية، أما هو فأداة للانفعال وتنفيذ الأفعال، أصبح، منذ البارحة، يده ولسانه وعينه. العينان اللتان بكى بهما هما عيناه. فمن هو؟ ومنذ متى أقام في الصدر؟ منذ الميلاد؟ أين كان طوال هذا الوقت؟ كان نائماً؟ لماذا لم يستيقظ إلا البارحة؟

عبر أحراش النخيل. جاور التلال الرملية الجنوبية. أناخ الجمل، وبسط قدماه خرقة خيش. أخرج صرة الشعير، ونثرها فوق الخرقة، ولكن الأبلق شمع برأسه في كبرياء، وتعلق بأفق المتاهة.

انبثق أول خيط ناري من أشعة الشمس.

جلس على رؤوس أصابعه، في المواجهة، وراقبه طويلاً، متكئاً على البندقية.

ثم لا أحد يعلم، ولا هو نفسه يعلم، كيف رفع فوهة البندقية وسددها صوب رفيقه. نهض عن الأرض ببطء كأنه ينتزع نفسه، وقرب الفوهة من رأس الأبلق. تقدّم خطوة، خطوتين حتى لامست الفوهة جبين الجمل. وضعها بين عينيه، وتشبّث بالسلاح بكلتا يديه. في عينيه يلوح التصميم والإصرار والغموض. يده ثابتتان. في المواجهة استسلم الأبلق أيضاً. التفت عيناهما. الاستسلام في عينيه أيضاً. لم ير فيهما الدهشة. بل العكس. بارك الخطوة. عيناه قالتا له: «اضغط على الزناد!». عيناه تحثانه، تشجعه. العينان العميقتان، الصافيتان كمياه عين الكرم، قالتا



وجد نفسه محموراً ملوثاً بالعرق إلى جانب الدم. لم يدرك متى وكيف

- كنت أعرف أنك ستفعل ذلك. حسناً فعلت. كسرت القيد وفرت بالصدق. في عينيك وفي عينيه رأيت ذلك منذ أول يوم. السر في العين.

ابتسم وأكمل :

- من يبدل زرافاً كأبلفك هذا بامرأة حتى لو كانت آلهة في الجمال مثل «ثانيت»؟ استغفر الله ولكن كل شيء مكتوب على الجبين.

أخرج من صندوق الحديد جراباً جلدياً قديماً، موسوماً بإشارات السحرة، غرف منه بفنجان الشاي مرتين، فتلألأ التبر وأعمى العيون. أشعة الغسق الصفراء انعكست على الحبيبات الصفراء فتلامع الذهب.

قدم له الصرة، وقال :

- لا تعتبر هذا رشوة. إنه سيفيك شر الحاجة حتى تمر المجاعة.

قال أوخيد :

- لا أعتقد أنني سأحتاج إليه. يقال في قبيلتنا إنه يجلب اللعنة.

تجاهل النصف الثاني من الجملة، وعلق على النصف الأول :

- لا يحتاج إليه الإنسان فقط وإنما الجن أيضاً. صراع الإنس والجن بسببه. وصراع الشيطان والإنسان بسببه. وصراع الإنسان والإنسان بسببه. فكيف لا تحتاج إليه؟ دخلت بسببه الحبس، ووقعت في الأسر، ونكّل بي زنوج بامبارا. ولكن لا تنس أن بدونه لما حققت ما حققت!

لوح بالورقة في الهواء، وابتسم، فذكره أوخيد بإصرار طفولي :

- ولكن يقال إنه ملعون ويجلب الشؤم.

- هذه خرافات يشيعها العاجزون عن الحصول عليه. الذهب هدف كل إنسان منذ أن يولد إلى أن يموت باستثناء الفاشلين وال دراويش. الفاشلون وال دراويش يرجمونهم بالشائعات لأنهم فشلوا في الحصول عليه. صدقني!

ولمع في عينيه بريق.

- ٢٤ -

في المراتع الجنوبية المحاذية لجبل الحساونة، استرد الأبلق عافيته.

فازت تلك البقعة بأمطار سحابة عابرة في نهاية الربيع الماضي، وخفيت عن الرعاة المحترفين بسبب فوزها المتأخر بالمطر. اكتشفها أوخيد بعد خروجه من «آدرار» متجهاً إلى الصحراء الشمالية فاستقر هناك. ترك المهري في المرعى الأخضر، وآوى إلى كهف في الطرف الغربي من الجبل.

عقد العزم على الاستقرار هنا.

ليس لأن الله كافأه واكتشف هذا الكنز الذي خفي عن الرحل والرعاة فقط، ولكن لأنه اكتشف كنزاً آخر أيضاً. في تلك السهول وجد الثمرة السحرية: الترفاس! لم يأكل الترفاس منذ أن استقر بالواحة الملعونة. وكيف يصبر طويلاً على الترفاس من ذاق مرة طعم الترفاس؟

في تلك السهول السرية لم يسترد الأبلق لحمه وشحمه وبهائه فقط، ولكنه ذاق الترفاس بعد عمر طويل في منفى الواحات، فتوح صبره وعذابه بالمكافأة.

ولكن المكافأة الحقيقية ليست في الترفاس وليست في استرداد الأبلق لصحته.

- ١٢٥ -

- ١٢٤ -



المكافأة في الصفاء والهناء والسكينة، في الهدوء والفضاء وامتداد الخلاء. لا يعرف معنى الطمأنينة إلا من كان مكبلاً بقيود الواحات، بالوهم والدمية والوهم، يهيمون الحياة ودسائس الناس. يعاند بالنهار ويسهر بالليل مهموماً فلا تزداد القيود إلا ضيقاً وشراسة. كلما فكَّ عقدة وجد أغلالاً جديدة تكبل يديه ورجليه وتلتف حول عنقه كئيبان الأدغال. كلما أطل برأسه وتخليل النجاة من الغرق تلاحمت قوى خفية وشدته إلى أسفل قاع. يقال إن في عين الكرمة يسكن عفريت يحترف هذه اللعبة، ولا يقوم بإغراق ضحاياه إلا إذا جاؤوا للسباحة وحيدين. ويتجنب الإيقاع بأولئك الذين يصطحبون رفقاء.

هذه حيل الحياة في الواحات أيضاً. العفريت لا يسكن عين الكرمة وحدها، ولكنه يسكن الواحة كلها: الواحة كلها.

أما هنا فإن العفريت تموت عطشاً، ويبقى المدى في الخلاء والمدي في القلب. الصمت في الأذن والصمت في القلب. سكينة في الصحراء وسكينة في القلب. ماء عين الكرمة يغسل الجسد، والصحراء وحدها تغسل الروح. تتطهر. تخلص. تنفخ. تنفض. فيسهل أن تنطلق لتتحد بالخلاء الأبدي. بالأفق، بالفضاء المؤدي إلى مكان خارج الأفق وخارج الفضاء. بالدنيا الأخرى. بالآخرة. نعم بالآخرة. هنا، فقط، هنا، في السهول الممتدة. في المتاهة العارية. حيث تلتقي الأطراف الثلاثة: العراء - الأفق - الفضاء لتنسج الفلك الذي يسبح ليتصل بالأبدية. بالآخرة.

هذا الالتحام السماوي، التحام الثالوث المقدس هو الذي ينشر الطمأنينة وينسج خيوط السكينة ويزرع الصمت والهدوء في القلب. سمع الشيخ موسى يردد هذه السورة منذ طفولته. نعم ردد هذه الآية حتى اعتقد أنها سورة من القرآن: الطمأنينة. ولكنه لم يعرف معناها إلا الآن بعد أن ذاق الحياة في الواحات واقتنى لنفسه القيود الشيطانية كما يفعل كل الناس

في الدنيا. كل الأغبياء في الدنيا. استبدل بالحرية الوهم والدمية والوهم وقال لنفسه كما يقول الجميع: «هكذا وجدنا آباءنا يفعلون». الآن فهم معنى هذه الآية. عندما سمعها من الشيخ موسى وحفظها لم يكن يدري أنه سيسير في نفس الطريق. قوم إبراهيم يصرون على عبادة الأصنام لمجرد أنهم ورثوا التقليد أباً عن جد. وهو تزوج وأنجب وصنع مكاناً للعار في قلبه كي يحبس نفسه في قيود أقوى من سلسلة الحديد التي يزيد طولها عن السبعين ذراعاً.

تخلّى عن الآية. عن السورة. عن التعويذة السحرية. تخلّى عن كلمة السر: الطمأنينة، الحرية، السكينة. تخلّى عنها تلقائياً بمجرد أن هجر الصحراء وسلم رقبته لسلاسل الاستقرار في الواحات. كل سكان الواحات عبيد. لا يقيم وراء جدار أو كوخ إلا عبد. وهو عبد فريد لأنه أعمى. عبد لا يرى عبوديته، عبودية الروح. ليس عبداً لعبد ولكنه عبد لشیطان قبض روحه بالسلاسل. عبيد الشيطان أسوأ من عبيد الناس. هذا هو العبد البشع الذي يثير الاشمئزاز. عبد العبيد يثير الشفقة، أما عبد الشيطان فيثير الاشمئزاز. وهو أيضاً كاد يهلك. كاد يغرق. الأبلق أنقذه من القيد. الأبلق رسول. الأبلق روح بعثه الله كي يحرر قلبه المقيد بالأصفاد. لولا الحيوان الطاهر لاقتفى أثر إبليس ولتخلف عن السفينة ولهلك مع الهالكين. كاد يتوغل في زحمة المغفلين. زحمة الغافلين الذين ورثوا الأعباء عن الآباء: الوهم والدمية والوهم. الأبلق رسول النجاة. سفينة النجاة، سفينة الحرية. ها هما ينطلقان كغزالين في صحراء الله الواسعة، الصحراء الخالدة الموصولة بالآخرة.

وداعاً للقيود المكسورة.

وداعاً للقفص الذي يفوق في قوته قضبان بقايا السجون التي تركها القائم مقام التركي قبل أن ينسحب من الواحة.

الفضل يرجع للأبلى في تحطيم هذا القفص.

وها هو الله يكافئه على الصبر ويهديه إلى هذا الكنز. المراعي الخفية، المراعي التي اخضرت بالسحب العابرة هدية سماوية في الصحراء. حتى الصحراء العارية تعرف كيف تخبيء المفاجآت لتكافئ بها الصابرين. كافات المهري بالعشب وكافاته هو بالترفاس. الترفاس أيضاً كنز مخفي. وما هو الكنز إن لم يكن ترفاساً؟ ثمرة تسقط من السماء. وجود بها العدم. تتشقق عنها الأرض. شذى ينطلق تائهاً في المطلق، تذرؤه الرياح وتعيده إلى الأرض. نلتحم البروق وتتزوج بالرعود فتولد الثمرة السحرية من قلب الفناء.

التمتع بالترفاس في بداية الصيف. هذه رحمة من السماء. هذا فردوس الأرض.

ولكن هل يدوم الفردوس حتى للأولياء؟ هل يدوم النعيم حتى للأنبياء؟

- ٢٥ -

التقى بأحد الرعاة.

جاء مع العشية على جمل بدين، قصير القامة، أشعث الوبر. عقّله في السهل وهتف: «تبارك الله!» ثلاث مرات قبل أن يطلق التحية. قال إنه يبحث عن جماله الضائعة. قال أيضاً إن أُوخَيْدَ وليّ ما دام الله قد رزقه دون غيره بهذا الكلا لأن أطراف القارة الصحراوية جذباء هذا العام.

استضافه أُوخَيْدَ بالشاي.

قال له:

- جدير بك أن تكتم السر.

- سأكتمه إذا كتمته أنت.

ضحك البدوي وقال:

- أعدك أنني سأكتمه بشرط أن تدعني أرعى هنا جمالي.

ضحك وأضاف:

- هذا إذا وفقني الله ووجدتهم في صحراء الله الواسعة.

- ستجدهم إن شاء الله. ستجدهم.

- لا شك أنني سأجدهم. الله يستجيب لدعاء الأولياء.



مسح لحيته، وانكأ الحصى سعيداً:

- سأكتف السرم مقابل الرعي - أنا كما ترى لا أطلب كثيراً مقابل السكوت.

عاد بضحك ثم قال:

- القناعة - كل الفقهاء يجمعون على إدانة الطمع - وأنا أصدقهم - لعنة الله على المال - هل سمعت بذلك الرجل الذي باع زوجته وولده في واحدة أدرار مقابل حفنة من التبر؟

جمد الدم في عروق أوخيّد - صرخ:

- ماذا؟

- القصة على كل لسان - تنازل لأحد الغرياء الأثرياء عن زوجته وولده مقابل حفنة من التبر - الذهب الذهب يعمي البصر - الآن فقط صدقت أن هذا النحاس ملعون حقاً.

سكت أوخيّد - سيل من العرق البارد تدفق على ظهره - ظهره مبلول كله - ارتعدت يداه فاندلق الشاي على الأرض - ثم نرف العرق من جبينه وفمه وسقطت قطرات في الفناجين وامتزجت بالشاي الأخضر المتوج بالرغوة - قلبه أيضاً نرف - نرف بالدم.

نسي في لحظة واحدة الحمل الذي ورثه عن الآباء - الزوجة والولد والعار - نسي أنهم وهق خاتق، ودمية مهلكة، ووهم فارغ، وعادت للأشياء معانيها القديمة - عاد الوهق زوجة مقدسة، وعادت الدمية ذرية وخليفة عهد، وعاد الوهم الكاذب عاراً حقيقياً.

حدث هذا في رمشة عين.

غاب الحلم الجميل وجاءت الحقيقة القاسية، البشعة.

توارى الوحي وحلّ الواقع - تبددت الحرية وجاءت الأصفاد - فخيّل إليه

أن كل ما فكّر فيه طوال رحلته الجسور نحو الخلاص كان وهماً - الوهم هو الوهم الآن - والزوجة هي الملاذ والولد هو المهدي المنتظر - انقلبت الآية في لحظة.

ليس ذلك غريباً - الإنسان إذا قرر أن يلوي العصا في يد إبليس لا ينبغي له أن يغفل - فبمجرد أن يتخاطب مع مخلوق يتكلم الإنسان بلسان الشيطان فيغيب الوحي الإلهي وتخفي الإشارة السماوية.

ومن أين للبدوي المسكين أن يعرف هذه الحيلة؟ من أين له أن يعلم بقدرة الملعون على تطيير العقل - تطيير الوحي حتى لو كان إلهياً؟

. ن .

ثلاث ليال متتالية رأى البيت المهدم.

لم يكن ينام . الجمرة في قلبه لم تترك المجال للنوم . ولكنه يفوز بغفوة قصيرة مع قبس الفجر في كل ليلة فيرى الخبرة الكثيرة . ويرغم أنه يعرف أن الغفوة لا تستمر طويلاً إلا أن تجواله في الانقراض يستغرق ليلة كاملة .

هذا الحلم ليس جديداً .

في طفولته عذبه كثيراً . في السنوات الأولى من شبابه أيضاً . في ذلك الوقت لم يزر الواحات بعد . ولم ير بيتاً مبنياً بالطين ولا بالحجر في حياته . ويرغم ذلك يزوره البيت المظلم ، الكثيب . البيت مشيد بقوالب الطين . ذو طابقين . مسقوف بجذوع النخيل . فوق الجذوع طرحت طبقة من السعف . فوق السعف طرح الطين المخلوط بالتراب . الطابق الأرضي مهدم . انهارت جدارن بعض الغرف . شيء آخر لاحظته في هذا البيت . هو مهجور وبلا نوافذ أو أبواب . والغريب أنه يجد نفسه محبوساً في الداخل دون أن يعرف من أين دخل . ودائماً يجد نفسه في الطابق الثاني ، فيمشي في الممرات المظلمة باحثاً عن مخرج . عن باب أو نافذة أو نور . وكانت أرضية هذا الطابق تميد وتهدد بالانهيار فيسرع الخطى محبوس الأنفاس . يخشى السقوط ويحس بوجود كائن مجهول لا يظهر أبداً . ولكنه لم ير شيئاً واحداً



أيضاً. وكل خشيته في هذه الرحلة المتكررة في أمرين: السقوط وغضبة الكائن الخفي!.

توقف الحلم في شبابه. توقف فجأة. ثم نسيه.

وقد عاد في أول ليلة اختطف فيها نعسة بعد حديث عابر السبيل. وتتابع الحلم ثلاث ليال متتالية. والآن، والآن فقط، بعد عودة الحلم، رأى بوضوح الثالث الغامض الذي يخيفه في الرؤية: الظلمة، والسقف المهدد بالانهيار، والكائن المجهول الذي لم يحدث أبداً، لا في الماضي، ولا في هذه المرات الثلاث، أن أعلن عن نفسه بكلمة أو إشارة. ولكنه، برغم ذلك، يعرف أنه موجود في مكان ما في البيت. في نهاية أحد الممرات. أو في ركن من إحدى الغرف. أو في السقف، أو فوق السطح، أو أسفل، في الطابق الأرضي، حيث الانقراض وأكوام القوالب الطينية المنهارة. وهو يخاف. يخاف هذا الكائن. لا يعرف ما يخبئه بالضبط ولكن مجرد وجوده ينشر في قلبه الخوف. خوف يجعله يحس بالخجل عندما يفتيق. خوف لا يشعر به في اليقظة ولا يتصور أن شيئاً يمكن أن يزرع في نفسه خوفاً مثل ذلك الخوف. حتى الموت لا يشير فيه إحساساً مماثلاً، فلماذا يخاف؟ ومم؟ ومن هو هذا الكائن؟ هل هو إنس أو جن؟ ملاك أم شيطان؟ قديس أم إبليس؟.

يجاهد في البحث ولكن شيئين يقفان مانعاً في طريقه: الظلمة والسقف الخطر المهدد بالانهيار. فترتعد خطواته. يرتبك. ينز العرق. تتلاحق أنفاسه، يتلمس طريقه بحذر في الممرات الخالية، كالأعمى، دون أن يستعين بالجدران. لا يعرف لماذا لا يستعين بالجدران في بحثه. يخطو في الفراغ، وحيداً، عاجزاً، مهدداً بالسقوط في الهاوية. وكلما صحا من الرؤية تنفس بعمق وحمد الله أنه لم يسقط وأن ما حدث هناك لا يحدث هنا، في الحياة.

والمحير أيضاً أنه لا يعرف من أين يظهر في البيت الخرب إذ لا باب هناك ولا نوافذ. ولا يسقط في الداخل من السماء أيضاً. إنه يظهر داخل البيت ولا يخرج منه إلا عندما يصحو. يهيم في الظلام كالأعمى. يرتجف خوفاً من السقوط ومن الكائن الخفي ولا يجد منفذاً في الدائرة السحرية حتى يفتيق.

وكان دائماً يسيطر عليه يقين غامض أنه يستطيع أن يكتشف الكائن الخفي لولا الأرضية المهزوزة، لولا الجذوع المنداعية، ولولا الظلمة أيضاً. الأرضية والظلمة هما العائق. فيحاول أن يجبر نفسه ولكن العجز ينتصر في النهاية.

الحلم توقف في اليوم الرابع برغم أنه نام نوماً مزعجاً مضطرباً.

وبرغم أن الحزن الذي زرعه العار في قلبه تفوق على كل ألم، إلا أن عودة الحلم ملأته بهاجس الخوف. خوف غامض. الخوف من أمر مجهول. إلى حد طغي حتى على العار نفسه. وحتى عندما اختفى الحلم في الليلة الرابعة بقي هاجس الخوف.

في تلك الأيام لم يجد لنفسه مكاناً. نسي الشاي. نسي الماء. نسي الأبلق. نسي حتى الأبلق. قضى الوقت يهيم في السهول. يصعد الجبل وينزل. حتى يهذه التعب فيستلقي في مكانه. تحت رتمة أو سدرية. بجوار صخرة أو داخل كهف. في قمة الجبل أو على السفح. وكان الأبلق يفتقي أثره حائراً. حتى إذا صعد الجبل وقف عند حذائه حائراً. قلقاً. حزناً.

فماذا حدث؟ من تجاسر على إطلاق هذه الشائعة البشعة؟ من المسؤول عن هذا التحريف؟ من قلب الآية؟ هل هو دودو؟ أم خدمه الأوباش؟ هل هي «أبور» تريد أن ترد الإهانة لأنه استبدلها بمقابل جمل فلاحته بهذه الطعنة؟ أم أن هؤلاء كلهم مشتركون في صياغة الكذبة؟ ولكن كيف سولت أنفسهم أن يقولوا إنه باع مقابل حفنة التبر؟ ما دخل الذهب هنا؟ تلقى الذرات هدية في

آخر لحظة. رفضها ولكن صاحب الشأن هو الذي أصر فهل كان يعتمد نصب فخ بهذا الإصرار؟ وأكثر ما حيره كيف جنحت الشائعة وطارت إلى أقصى الصحراء. من زمان يقولون إن الريح هي التي تنقل الشائعات والأخبار في الصحراء. الريح متخصصة في نقل الفضائح الأخلاقية بوجه خاص. بنقل العار. يا إلهي. هذا عار لم تسمع بمثله الصحراء من قبل. حتى أكثر العبيد عبودية لم يبع زوجته وطفله مقابل حفنة من التبر. حفنة من التراب. لعنة الله على الذهب. قال إنه يجلب النحاس. صرّح براه لدودو. أعلن أن النحاس الأصفر ملعون في القبيلة. ها هي لعنته تلحقه أيضاً. لحقته دون إثم. زوراً وبهتاناً. أم أنه آثم؟ آه. كاد ينسى. النذر. نذر تانيت. هل هذا هو نذر تانيت؟ أم لعنة الأب؟ يا ربي. الرأس يتكسر. القلب ينفجر. أين النفس؟ أين الصبر؟ الصبر عبادة. الصبر صلاة. الصبر هو الحياة. من الصعب أن يستوعب العقل في الضيق. في الضيق تتلاشى كل تعاويد الأرض. هل هذا ما يسميه شيوخ الطريقة: الوسوسة؟ هل هذا ما يسميه الناس: الجنون؟!

صبر على كل البلايا ولكن كيف يصبر على شيء كهذا؟ إنه أكبر من العار. إنه أسوأ من الموت. ليته مات. لا. لا. لا ينبغي أن يموت قبل أن يصحح هذا الخطأ. لا بد أن يقنع الناس بحقيقة ما حدث. لم يبع أحداً سوى قيوده. تخلى عنهم طائعاً كي يسترد حياته مع الأبلق. كان يسعى لأن يخلص... يتخلص. ي... ت... ح... ر... ولكن من يفهم هذا الهراء؟ من يصدق هذه الأساطير؟

لقد أخذ التبر. وفكّ رهن الجمل وسلم امرأته وولده لرجل غريب يدّعي قرابة ربما كانت مزعومة.

لقد وقع ضحية سهلة في الفخ. لن يصدقه أحد. كل الأدلة تدينه. كل البراهين ضده؟ ما العمل؟ لا بد من تصحيح الخطأ. لن يترك الأمر هكذا.

لن يموت مجللاً بعار كهذا. سيذهب إلى الوغد. سينزع من شفتيه الحقيقة للناس. الكلب ابن الكلب. و... سيعيد له التبر الملعون. شوّهه بالذرات الصفراء. لوّث يديه. لطخ روحه. امتدت يده إلى عرين اللعنة. اللعنة الكامنة في الكنوز. فتلطخت يده. تعفنت إلى الأبد. ماذا سيظهرها الآن من النحاس الملعون؟ كيف سيمسح الإهانة؟ كيف سيمسح اللعنة؟ كيف سيغسل قلبه من الحرام؟ وإذا استطاع الموت أن يمسح اللعنة فهل يستطيع أن يغسل الإهانة في رؤوس الناس؟ آه. ما أشقاه! ما أشقاه، ما أشقاه! صتم على الرحيل، ولكن الشائعة حطمت، بضربة واحدة، الأسطورة: فعاد الوهم عاراً والدمية ولداً والوهق زوجة. وعاد لكل شيء معناه القديم أقوى مما كان.



لا يعني كيف قطع الطريق ولا يعرف كيف وصل الواحة ولا يذكر كم ليلة استغرقتها الرحلة ولا يدري عما إذا بات في الطريق أم واصل سفره ليل نهار بدون توقف.

جنوب الواحة، في الغراء المجاور لأحراش النخيل الملاصقة لكوخه، رأى كوكبة من المثلثين تعني بالمهاري الضامرة. هل هو العرس؟ هل جاء ليلة العرس؟

تعتمد أن يسلك الطريق الذي يلتف حول الغابة ويدور خارج الطوق الأخضر. في المدخل قابل فلاحاً. سألته أين يمكنه أن يجد «دودو». تلثم الفلاح وارتبك. وخيل إليه أنه وقف لحظات مدهوشاً حائراً قبل أن ينطق مشيراً بإصبعه ناحية الشرق:

- ستجده هناك. في عين الكرم.

ثم تابعه وهو يجرجر الأبلق حتى تواري خلف أحراش النخل، في حين تضاعفت الحيرة والدهشة في عينيه. فما معنى هذا؟ ماذا أراد الفلاح أن يقول بهذه النظرة. هل عودته هي السبب؟ هل انطلقت شائعة أخرى في الواحة تنعيه وتعلن موته؟ أم أن الفلاح المسكين سمع بعاره، كغيره من الأهالي، فاستنكر فعلته وأدهشه أن يراه في الواحة بعد عمله البشعة؟ أم قرأ في عينيه أمراً؟ أم مجرد أنه رأى على وجهه التعب؟

الله وحده يعلم ماذا يجول في رؤوس الفلاحين .

من الغرب ، خلف الأحراش ، انطلقت زغرودة بعيدة .

هل هو العرس ؟

حول عين الكرمة خيم السكون . ولكن ذكور الجنادب قطعت شوطاً بعيداً في مسابقتها الغنائية .

سمع شوشرة الماء المتدفق من العين عبر الجدول . اقترب من فوهة العين .

فم العين مطوق بحزام كثيف من أشجار مختلفة . نخيل وتين ورمّان . حلقة الأشجار ترك منفذاً واحداً يفضي إلى الصحراء الشرقية . من هذا المدخل تبدو قمم التلال الرملية . أما الفوهة فدائرية ، واسعة ، تطفح فيها المياه الصافية الساكنة حتى الحافة .

دار أويخيد يمينا كي يتمكن من الدخول عبر الطريق الشرقي وحتى لا يضطر إلى التخلي عن المهري . قبل أن يبلغ الفوهة رأى الثياب الفضفاضة مطروحة على نخلة قصيرة القائمة . كثيفة الأغصان . تتابع دقات قلبه وازداد السكون عمقاً . خيل له أن الأشجار أيضاً تنصت وتتفكر وتراقب . . . تنتظر . مع ازدياد السكون ازدادت مباراة الجنادب الغنائية صخباً وجنوناً . سمع ضجة الماء في العين . يتغسل . العريس يتغسل . يتهاى كي يتسلل إلى فراشه لينام بجوار زوجته . سرق منه زوجته . عرف كيف يستولي عليها . نصب له شركاً واختلسها . المجرم . قاطع الطريق . أسوأ قاطع طريق . قطاع الطرق يسرقون الإبل وهذا الشيطان يسرق الزوجات . هل رأت الصحراء قاطع طريق يسرق الزوجات من أزواجهن ؟ هذه أول مرة . هو أول ضحية . ليس هذا فحسب . وإنما يذهب ويقول للناس أنه اشتراها بماله . بحلاله . بالتبر . وهؤلاء هم الشهود . عبيده هم الشهود ، سيشهدون .

شهدوا . ضمن أن الناس لن تتكلم . الناس ستباركه . جاء من آير لاسترداد قريبته . ابنة عمه . بماله . بذراعه . من يستطيع أن يعترض ؟ بالعكس . هو شهم . هو بطل . دودو بطل . أما هو . سليل اخنوخن العظيم . ابن شيخ أعرق قبائل الصحراء ، فباع زوجته وولده مقابل حفنة من وسخ الدنيا . هو نذل . هو ملوث بالعار . يا للعار !

وقف فوق رأس غريمه .

انحرفت شمس العشية نحو الغروب .

تبادلا نظرة طويلة .

توقف دودو عن العبث بالماء ورفع نحوه نظرة بلهاء . نظرة عارية . رأسه حاسر من اللثام . عيناه أيضاً . لا يضع لثاماً الآن على قلبه . ضبطه قبل أن يلثم قلبه . هذا الساحر . نظرته الآن تختلف . ضبط متلبساً . أثناء ممارسته لفعلته . أذناه كبيرتان ، متدليتان كأذني جحش . ورأسه أصلع . مستطيل . لحيته مثل لحية التيس . وعظام صدره بارزة . جسده نحيل . لا يبدو بهذا النحول عندما يكون لابساً ثيابه الفضفاضة . ثياب الطواويس تنفخ في جثته فيبدو مارداً . مزيف . كل شيء فيه مزيف . واستغرب الآن كيف استطاع أن يخدعه هذا الحيوان الأبله بهذه السهولة . كيف أعمى بصره وبصيرته . ساحر . لا شك أنه ساحر . آير بلاد السحر والسحرة . لا شك أنه أحدهم .

شيع يده وارتفعت نحو رأسه . لم يصوب طويلاً . ضغط على الزناد دون أن يحيد عنه بصره . اتبثق الدوي ولكن الرصاصة لم تصبه . انتفض وفاضت عيناه بالتوسل . فيهما ضراعة . فتح شفتيه . أراد أن يقول شيئاً ولكنه لم ينطق . لأن الطلقة الثانية اخترقت نحره . نحره بالضبط . أصابته في البلعوم فذبحته . غاب تحت الماء مفتوح العينين والشفتين . ماتت الكلمة على الشفتين . لم تمهله الرصاصة لينطق . ليقول كلمته . امتزج الدم بالماء في العين . موجات الماء الأحمر امتدت واتسعت وابتلعت صفاء الماء .



فتح صرة النبر وألقى بها في العين. فوق المكان الذي غابت فيه الجثة.  
قال:

- وهذه هدية الزرافة!

تلألأت المياه، تحت أشعة الشمس الغاربة، بذرات النبر اللامعة والدم  
الأحمر!

من أقصى الغرب، خلف الغابة، انطلقت زغرودة بعيدة.

طار إلى الصحراء. عاد إلى جبل الحساونة واعتصم بالكهوف.

قضى الليلة الأولى بعد الحادث في الخلاء. هناك عادت الرؤيا  
المهاجرة. الرؤيا التي هجرته في الليلة الرابعة بعد الخبر. الكائن الخفي  
القابع في ثنايا الظلمات، الظلمات المحبوسة في بيت الانقراض. بيت  
الطين المهتم. وبرغم أنه مهتم إلا أنه محكم الإغلاق. لا نوافذ ولا  
أبواب. مثل دائرة مغلقة. وهو يجوس في الممرات الوهمية. فوق السقف  
الأيل للسقوط. يتلمس الهواء بحثاً عن الكائن، عن السر. يتعثر. يتفقد  
بيديه. يتحاشى الجدران الوهمية، وهمية ولكنه يعرف أنها موجودة. لا  
يراهها ولا يلمسها ولكنها موجودة، سمكة، ثقيلة. قاسية، بشعة.

وأعجب ما في الرؤية الأخيرة أنها لم تكن رؤيا. بداها غافياً وواصلها  
مستيقظاً، واعياً، مفتوح العينين. تعتمد أن يفتح جفنيه كي يعبر الحلم ولكن  
الظلمات استمرت كثيفة، والسقف الذي يمشي عليه يهتز ويهدد بالسقوط.  
والكائن الخفي يوميء ويوحي بوجوده دون أن يظهر. استمرت بقطته  
العجيبة زمناً، تخيله ساعات. وعندما جلس أحس بالصداع ورأى قيس  
الفجر. استلقى وعاد إلى النوم.

في الأيام التالية انقطع الحلم مرة أخرى.

مكث في حدود الجبل .

الطريق إلى الحمادة ما زال مهدداً بالغزاة . وفي الأطراف الغربية والجنوبية ينتشر أبناء قبيلته المشتتة . وقد عرف أن صلته بهم بعد ما حدث ، انقطعت . صلته ليس بقبيلته فقط ولكن مع كل الناس . عاره لن يمحوه الدم . لن يمحوه حتى الموت . ستطارده اللعنة حتى بعد الممات . حكم عليه بالعزلة إلى الأبد . لن يجرؤ على التحدث إلى مخلوق . لن يجسر على النظر في عيني إنسان . الأبلق الآن هو صديقه الوحيد . أراد أن يبقى بجوار الأبلق فكتب له الله جواره الأبدى . الأبلق الآن له ، وهو للأبلق . لن يفرقهما إلا الفناء . بل حتى الفناء لن يفرقهما . سوف يذهبان معاً . سيعودان إلى أصلهما معاً ، كما كانا قبل أن يولدا . فهل ما حدث نعمة أم لعنة ؟ .

في اللعنة أيضاً يوجد سر . في اللعنة أيضاً خلاص . في اللعنة خلاص عندما تكون أبدية . لأنها تدفع إلى المنفى ، والنجاة في المنفى .

ولكن اللعنة لم تتوقف عند حدود المنفى .

إذ جاء من آير أقارب القتل ، وانتشروا في الصحراء طلباً لرأسه .

في الأصل جاؤوا لاقتسام الثروة . في الأصل هم ورثة ادعوا القرابة كي يفوزوا بالثروة . ولما كان دمه حائلاً بينهم وبين الثروة . لما كان عرف الصحراء لا يبيح تقاسم الإرث ، تقاسم الغنيمة ، قبل الانتقام للقتيل ، فإنهم جدوا في البحث عنه . جدوا وعجلوا في الظفر به لا حباً في دودو ولكن كي ينهوا عملهم ويوزعوا الثروة بأسرع وقت . استعملوا في ذلك حيلة دخيلة لم تعرفها الصحاري الشمالية . لجأوا إلى الرشوة . رشوا الرعاة والرحل الخبراء بتفاصيل الصحراء الشمالية . الذهب يعمي الجميع . الذهب يفسد أفضل الخلق . الذهب الملعون قادهم إليه . الذهب وراءه . الذهب سبب كل اللعنات .

في الأيام الأولى مشطوا السلسلة . ثم اهتموا إلى مقره بأثار الأبلق . نيههم أحد الرعاة المهاجرين إلى زويلة . قال له إنهم يتسابقون لنحره كي يقضوا الأمر المفعول ويعودوا إلى بلادهم .

في الأيام الأولى مشطوا السلسلة الجبلية وفتشوا القمم حجراً حجراً . ثم اهتموا إلى مقره بأثار الأبلق . يبعثر البعير . عسكروا تحت الجبل ونصبوا خيمة . توقفوا عن التناول في صخور الجبل عدة أيام . ربما لأنهم ينتظرون رسولاً أو أمراً من جماعتهم في الواحة . فريق منهم أشرف على قطعان الإبل في «دبابة» ، وفريق ثالث رابط في «آدرار» . وقاد المعركة من هناك .

هكذا حدثه الراعي المهاجر إلى الشرق .

فكر في الفخ . الوقت ليس في صالحه . إذا استمر معتصماً بشقوق هذه المنطقة فإنهم سيتمكنون منه بين يوم وليلة . خلال أيام في أحسن تقدير . زاده من الماء سينضب بعد يومين ، وأعشاب السحابة الرحيمة بدأت تشحب وتذبل . شمس الصيف باشرت عملها .

انتظر حتى عمت الظلمة . تسلل بين الصخور حتى بلغ الشعبة التي يرعى فيها الأبلق . وضع عليها السرج والقرية وما استطاع أن يحمله من متاع وانطلق بمحاذاة السلسلة صوب الشرق . ركض النهار كله حتى أشرف على نهاية الجبل شرقاً . صعد إلى قمة وخبأ مؤونته هناك . عاد إلى المهري وأمسك برقبتة . نظر في عينييه العميقتين الرحيمتين وتوسل إليه :

- الآن سنفترق . لا بد أن نفترق . سيقتلوننا إذا لم نفترق . اذهب إلى الحمادة . ابتعد من هنا . لا تخف علي . لن ينالني أحد في تلك القمم . هم لا يخبرون مسالكها وشعابها وكهوفها مثلي . هم غرباء . المهم أن تذهب أنت . أن تختفي . في الحمادة الواسعة ستنجو . وعندما ينقشع الهم سنلتقي مرة أخرى . ولن نفترق بعدها أبداً . هل اتفقنا ؟



نهض الجمل، وتمسح بشفتيه على ذراعه، وتلمس بلسانه وجنتيه  
البارزتين خلف اللثام الفاتم.

لوح له أُوخيد بالوصية الأخيرة، بكلمة السر:

- اصبر فقط. لا تنس التعويذة. الصبر هو الحياة.

حدق المهري في الأفق، حيث يمتد العراء الأبدى، قبل أن ينطلق في  
رحلته الطويلة.

في عينيه، رأى أُوخيد حزناً لم يره من قبل.

لجأ إلى كهف في أوعر منطقة. لم يكن كهفًا مثل الكهوف ولكنه شق في  
جدار صخري يؤدي إلى القمة. تجنب الاعتصام بالكهوف السفلية لأنها  
معرضة لتفتيش العدو قبل أي مكان في الجبل. الكهوف السفلية ستكون  
أول هدف يقصده الرعاة الذين يستخدمهم هؤلاء الأغراب الآن لتدنيس  
الحمادة البكر. الحمادة الآن مطوقة بالقرابة. القطليان ينتهكونها من الشمال،  
وقبائل آير تنتهكها من الجنوب. هو مخنوق. هم محاصرون، سجين. الإنسان  
قادر أن يحول حتى صحراء الله الواسعة إلى سجن أبشع من سجن القائمقام  
التركي الذي رأى أطلاله في «آدرازا» هو مخنوق. لأنه مقطوع. الويل  
للمقطوع. حتى قبيلته لن تهرع إليه. والأوباش الذين يطاردونه يعرفون  
ذلك. اختاروا الوقت المناسب. خلافه مع أبيه أولاً، ثم انفصاله عن  
القبيلة. ثم القطيعة الأبدية بعد فضيحة التبر. القبيلة ستبترأ منه إلى يوم  
القيامة عندما تسمع بعاره. هذا خلق الطرف الملائم، مهد الطريق لمطارديه  
الأوباش. وهم حريصون على اقتناصه ليس للانتقام لقريبتهم القليل ولكن  
لعجلتهم في أن يفرغوا من الثروة، في أن يزيحوا الصخرة التي تحول بينهم  
وبين اقتسام الورثة. إذا مات الغني غداً تسابق القاصي والداني للانتقام  
له، ليس حياً ولا حرصاً على الدم المراق، ولكن لإيجاد الطريق إلى  
ثروته، لإيجاد مبرر لنيل النصيب من الثروة. فهو يشقى ويقاتل مرّة «بامبارا»  
ويعرض جسده لسهامهم المسمومة كي يستولي على الذهب، ثم يموت

فتسقط الثمار بين أيدي الجبناء.

هكذا هي الدنيا. الجبناء هم الذي يجنون الثمار دائماً. ولسوء حظه أنه حجر عثرة في طريقهم. لن يهناً لهم بال، لن يناموا الليل، حتى يمزقونه. حتى يمحونه، ليواصلوا سعيهم إلى الذهب. إلى ذرات التبر. لعنة الله على التبر. كله بسبب التبر. دودو أيضاً قضى عليه التبر. ليس هو المسؤول عن رقبة دودو، التبر هو المسؤول. ولكن من يفهم؟ هل فيهم عاقل واحد يستطيع أن يفهم الآن؟ العقلاء في بيوتهم. العقلاء في آبر. العقلاء لا يقطعون مسيرات شهور كي يطاردوا رجلاً وحيداً في جبل الحساونة طمعاً في الذهب.

قبل أن يستقر في الشقي تفقد الجبل الجليل الممتد من الغرب خاشعاً، ساجداً نحو الشرق، صوب القبلة. ينسج لقمته العالية عمامة زرقاء من قيس الفجر الصحراوي المسحور. ويكتب، مع الشروق، ويكتب السر الذي حفظه من قم الملكوت في الليل.

هذا السر هو الذي يهبه هذا الجلال.

فكم هي عارية وكم هي خفية هذه الصحراء!

هذا السر. هذا المخاطر الخفي الهائم في الفضاء. الإحساس المبهم المعمم بثنايا الظلمات والسكون، هذا الذي تحسه ولا تتلمسه هو الذي سجد له أوخيد وتوسل إليه. طلب منه، في تلك العشية عندما ودع أبلقه ورآه يطفو ويغرق في السراب الفضي عند الأفق، أن يحميه من الشر ويحفظه من الحسد والحقد ويدبر لهما لقاء قريب. ولم يهتف في دعائه السري للسر أن يجعل اللقاء في ساعة خير، ولم يختم التوسل بآية الكرسي ولا بأي سورة من القرآن، كما لم يتعوذ، في صلاته، من الشيطان الرجيم، فتشاورت القوى الخفية على عجل وعرف الشيطان كيف يحشر أنفه في الجمع ليعجل في إتمام طقوس اللقاء ولكن على ساحة أخرى.

وقبل أن يشهد أوخيد تلك الاستجابة المشؤومة حصن نفسه داخل الجحر المنيع. سد فوهة الشق بالأحجار وحشر جسمه في حبسه الجديد. دخله في الليل، ونام جالساً ثانياً ركبتيه إلى صدره. وفي النهار رأى رسوم الأولين. كان الجدار العمودي للمشقين مزينا بالصور الملونة. على يمينه قطع من الجاموس البري يتشرب في المرعى ويرتع بكسل. بعض الرؤوس تنحني لتلتهم الكلال، ومجموعة أخرى ترتفع رؤوسها باسترخاء مما يقطع بأنها تمضغ أو تجتر. على يساره نحت هؤلاء السحرة مشهداً ساحراً. مجموعة من الرعاة تظارد وداناً متوجاً بقرنين كبيرين يتجه إلى جبل بعيد. الصيادون يمسكون بالرماح والبعض الآخر يلوح بالقوس ليطلق النبال صوب الضحية. ومن الصعب التكهن بنتيجة المطاردة، لأن المسافة بين الودان والصيادين لا توحى بأنه سينجو برغم وجود الجبل في نهاية الطريق. الرسام صنع الجبل، في الأفق، كي يضع الأمل أمام الودان المسكين. الجبل هو الأمل الوحيد. هو الخلاص. وهو يعرف ذلك. ولذا يضاعف الجهد. واضح أنه منهك. هيئته توحى بذلك. هيئته ثقيلة. ولكنه يستمد القوة من المجهول. المجهول الذي يدفعنا كي نحب الحياة. والصيادون يعرفون أيضاً أنه سيفلت إذا اعتصم بالجبل. فيضاعفون العدو. ويدققون في تصويب النبال والرماح. الودان لم يصب بسهم ولا برمح وبرغم ذلك فإن أمله ضعيف في النجاة. لا يعرف أوخيد لماذا خامره هذا اليقين: الودان لن ينجو. لا يعرف كيف استطاع الرسام الساحر أن يوحى له بهذا اليقين المرعج، الكريه. ولا يعرف لماذا أيضاً أحس بالقلق واليأس بسبب هذا الإحياء.



وصلوا بعد يومين .

سمع همهمة في الفجر فظن أنها تمتمات الجن العادية . تمتمات الجن في جبل الحساونة معروفة . تعود عليها وألفها كل من حط برحاله بجوار الجبل أو عبر الوديان السفلية في الأمسيات .

الجبنة يتحاشون المرور بالسلسلة . يظن هؤلاء البلهاء أن الجن أشر من البشر . هو لم ير حتى الآن أشر من الإنس . الأجدر بالخائفين أن يخافوا الإنس . مسكين من ظن أن الإنس إنس . مسكين من سلم أمره لإنسان . مسكين من رهن رأسه لإنسان .

لقد جرب ما معنى أن يرهن المرء رأسه للإنسان . وحده يملك الحق في أن يطلق هذا التحذير . ومن يجرؤ ويدين الإنسان إلا من جرب الإنسان ؟ أي إنسان يفتح فمه بإدانة الإنسان إذا لم تكن رجلاه في النار ؟ اللي رجليه في النار . . . ما أشقى من «رجلاه في النار» ! وما أقسى قلب من جرب النار !

ثم اختفت الهمهمات .

كمن في مخبئه حتى الأصيل من دون أن يسمع صوتاً . سمع طنين أذنيه في ملكوت السكون . هل ذهبوا أم أن ما سمعه وهم ؟ أم أنه تمتمات الجن

حقاً؟ ولكن الجن لا يتمتم في الفجر. الجن يتمتم في قلب الليل. الفجر حرم الجن المقدس. في الفجر يخرس كل شيء في الحمادة. والجن ينزل إلى دنياه السفلية.

بلل ريقه بجرعة ماء من القربة. أحكم ربط فمها وأزاح حجر المدخل. غمره النور فأغمض عينيه. زحف خارجاً من الشق كالعظاءة. شمس الأصيل قاسية. نزل السفح الشمالي كي يتفقد آثارهم. ذهب إلى الناحية التي سمع منها الهمهمة في الفجر. لم يقطع مائة خطوة لما ارتطم بأحدهم. يتقوس خلف صخرة وينحني فوق نعليه. وفي اللحظة التي رفع فيها الرجل رأسه كان أُوخَيْد قد توارى خلف الصخور. هل أبصره؟ إذا لم يره فلا شك أنه رأى شبهه أو ظله. إذ أسرع الرجل الخطو ودرج الأحجار عبر السفح مما يقطع بأنه انتبه وهو - الآن - يسعى أو يتخذ التدابير. هذا يدل أن صمتهم كان باتفاق. الصمت المشبوه الذي اعقب الهمهمة في الفجر كان مؤامرة.

زحف أُوخَيْد بين الأحجار محتثاً بالصخور. صعد السفح بيديه ورجليه معاً. من جبينه سال العرق وتسابت دقات القلب. قبل أن يبلغ فم جحره بخطوات اصطدم بكائن. يا ربي، الودّان. ودّان كبير، أشعث، معقوف القرنين. الودّان أيضاً دهش. توقف في مواجهته فجأة. لم يهرب. نظر في عينيه. تبادلا نظرة طويلة. في عينيه رأى أُوخَيْد أسراراً كثيرة. وعرف لماذا يتخصص بعض الناس باقتناص الودّان. الودّان ليس شاة أرضية. إنه شاة سماوية. ملاك سماوي. رسول. الودّان، مثل الأبلق، رسول. ما أندر مثل هؤلاء الرسل.

سمع ضجة الأحجار المتدفقة عبر السفح فعرف أن العدو يقتفي أثره. ترك الودّان المدهش وقفز إلى جحره. هو الذي قفز وترك الودّان واقفاً. الإنسان هو الذي هرب من أمام الودّان الرباني العظيم. هذا يحدث لأول

مرة في جبل الحساونة! كَمَنَ في المخبأ وسد الشق بالحجر. كتم أنفاسه وأنصت لدقات قلبه. لم يكن انفعاله بسبب المطاردة أو خوفاً من العدو. ولكن بسبب اللقاء. تذكر الودّان المنهك المرسوم على الجدار فبدأ يرجف.

انطلقت الطلقة.

تردد صداها في الجبل طويلاً. السكون عندما يكون عميقاً وطويلاً فإن صدى الرصاص يكون طويلاً وعميقاً أيضاً. عرف ذلك عندما كان يتردد على الأودية المجاورة لصيد الغزلان في سنوات الرخاء قبل أن يقتحم الطليان البلاد ويدفعوا بالقبائل إلى الهجرة.

هل أصابوه؟

تنادوا. وبعد قليل انطلقت الهرجة. أصابوه.

اقترب أحدهم من مخبئه. صاح لأصحابه:

- لا أثر لأقدام إنسان هنا. هنا كان ينام الودّان. هذه آثاره. وهذا روثه أيضاً. أظن أنك لم تر إنساناً. شبح الودّان هو الذي رأيته. بكى أُوخَيْد.

للمرة الثانية يبكي في حياته. لم يستطع أن يحبس الدموع في عينيه فسالت وحدها. الله بعث له برسول فقتله الأشرار. الرسول محاً آثار أقدامه أمام المأوى. وترك بعراً أيضاً. فهل هذا ما أراد أن يقوله له بتلك النظرة الخفية؟ هل قال له: «جئت كي أفكك منهم فأنج نفسك؟» يا ربي، لماذا يسقط الأبرياء بيد السفلة؟ يا ربي، لماذا يسقط الرسل بيد السفلة؟

سمع الهرجة. بعضهم يسلخ. وبعضهم يجمع الحطب. أحدهم رفع صوته بأغنية.



في قبره أكل حبات التمر على رائحة الشواء. الرائحة تصاعدت في قمة  
الجبل طوال الليل وتسلسلت عبر شقوق الأحجار وغزت القبر.

في آخر الليل سمع أحدهم يقضي حاجته بجوار قبره ويحدث نفسه  
كالجن:

- أنا لم أكل وداناً. لم أكل وداني بعد. وداني هرب. البلهاء لا  
يصدقون أنني رأيت. رأيت ودان العمر. ولكن لن يهنا لي بال حتى أهنا  
بصيد العمر. كيف أعود إلى الواحة بدون رأسه؟ إذا عدت إلى «آدرار»  
بدون رأسه عدت إلى «آير» بدون نصيب.

ثم سمعه ينتحب.

لم يصدق أذنيه. كنتم أنفاسه وسخر حواسه للاستماع. لم يتوهم.  
الرجل يبكي. هذا رجل مخيف. إذا بكى رجل في الصحراء طلباً لشيء  
فلا بد أن يناله يوماً. وهذا الرجل يخطط للاستيلاء على رأسه. يبكي لأنه  
لم يفز برأسه. يا ربي! هل أصبح رأسه البائس بهذه الأهمية فجأة؟ لا.  
ليس رأسه هو المطلوب. التبر هو المطلوب. الراعي المهاجر لم يخطيء،  
وتخميناته وتكهاناته بشأنهم لم تخطيء. غايتهم هي التبر. هي الكنز. وهو  
حارس الكنز. الثعبان الذي يحرس أي كنز. وكى ينالوا الكنز لا بد أن

يقتلوا الثعبان الذي يعترض طريقهم . تذكر دعاء الشيخ موسى : «يا رب . لا تجعلني حارساً على كنوز الدنيا» . الآن فهم معنى هذا الدعاء الأثير . لن يهنا بال لحارس الكنوز . السيف دائماً على رقبة الحارس .

فاض قلبه بالقلق . اكتشف أن جحره في رأس الجبل ليس آمناً . بكاء الرجل طناً في أذنيه طوال الليل . حين يتحسّر الرجل فثمة خطر . إذا بكى الرجل وراءك فلا بد أن يضع يده عليك . فأين الأمان؟ لا أمان في أي مكان . الأمان في الحركة . في الهرب . في الجري عبر الخلاء .

قرر أن يهجر الجبل . في الفجر . في الغد . في أول فرصة . في اغفائه المتقطعة زار بيت الظلمات . وفي الصباح عاد الأبلق قبل أن يجد فرصته في الفرار .

- ٣٢ -

سمع جلبتهم عند السفح وهم يحومون حوله ، ثم يحاصرونه . تعالت صيحاتهم . مرّ زمن قبل أن يسمع صوته . استغاثته :

- آ - آ - آ - ع - ع - ع . . .

ماذا يفعلون؟

عادت الاستغاثة الأليمة أقوى من قبل . تردد صداها في قمة الجبل طويلاً . ثم . . ثم غزت أنفه رائحة الشياط .

فهم . إنهم يكوونه بالنار . يحرقونه . يحرقون قلبه . لن تصطاد الصقر إلا إذا عشت بعشه . بفراخه . عرفوا عشه . خدّم دودو دلوهم عليه . وربما كان الراعي الحكيم ، ذو الفم الخالي من الأسنان ، بينهم . دليلهم . قال لهم إن قلب الصقر في ولده . ولن تقتنصوا الصقر القابع في القمم إلا إذا أحرقت قلبه بالنار . الشيخ موسى على حق . الشيخ موسى على حق في كل شيء . لا يمل الشيخ من القول : لا تودع قلبك في مكان غير السماء . إذا أودعته عند مخلوق على الأرض طالته يد العباد وحرقته . والشيخ موسى لا يرهق قلبه . لم يرهقه قط . لم يتزوج ولم يلد ولم يرثي قطعان الأغنام أو الإبل . ربما كان هذا هو سبب تحرره من الهم . لم يره غاضباً . ولم يره ضاحكاً . ابتسامة واحدة ، ثابتة ، مطبوعة على شفثيه . وها هو الآن يقف على حكمته .



- 10A -

الحاسر. طار السيف في الفضاء، واغتسل بماء السماء... بأشعة الشمس  
القاسية، ونزل على الرقبة...

انشطرت الظلمة بالقبس المفاجيء. ضرب بيت الظلمات زلزال. انهار  
الجدار الفظيع بضربة سيف النور، فتبدى الكائن الخفي. ولكن... بعد  
قوات الألوان لأنه لن يستطيع الآن أبداً أن يحدث أحداً بما رأى.

١٩٨٩